مجموعة قصصية

بقعة الدم .. الهاربة

عزة عزت

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

جمادى الآخره ١٤١٤ هـ - ديسمبر ١٩٩٣ م

الغلاف والإخراج : فكرى توفيق

الرسوم الداخلية : شمس الدين موسى

جمـــع وتنفيـــذ : محمد عبد التواب

علاء مسعد

إهداء

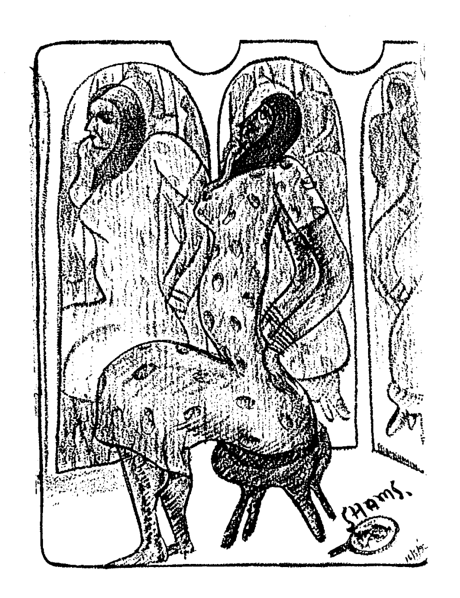
إلى المرفأ الذي أسكن إليه
فأرى الدنيا أجمل ..
وإلى الأنواء التي تجعلني أرى الدنيا
بعين أرّقتها المعاناة.
.. ودائماً في انتظار شراع أمل لتطفو
على سطح الحياة

عــزة

طبع فى مطابع السلام - جمهورية مصر العربية
٢ ش السلام - جسر السويس ت : ٢٤٢٩٧١٤

سنوات هربت وإنفلتت من بين يديها ، تاركةً آثاراً متراكمة على جسدها، وكأنها عوامل تعرية عاتية تركت ركاماً، ومحقت نضارة وجمالاً لم يبق منهما شيئاً.

بقعة الـــدم الهاربة..


Chams.

نظرتْ إلى المرآة، فوجدت خطوطاً وغضوناً .. بدأت تحوم حول حدقتي عينيها، لمستها بأطراف أناملها، وحدَّقت بشدة لتتبينها، ثم مالبثت أن أشاحت بوجهها عن المرآة. ووضعت نظارتها الطبية على وجهها، ونظرت مرة أخرى إلى صورتها التي وضحت أكثر أمام ناظريها .. لكنها إرتاحت إلى حد ما .. إذ أخفت العدسات السميكة ما أتلفه الزمان، فبدت العينين الصغيرتين الذابلتين أكثر لمعاناً .. وإتساعاً.

قامت من موضعها لتجلس في بقعة الشمس المتبقية في حجرتها من نهار غارب، وشمس فاترة الحماس، تتوارى هاربة خلف سحابة كبيرة، وراحت تنظر إلى كفيها المعروقتين اللتين برزت العظام والعقل في بعض أصابعهما، وأضناهما العمل البيتي الشاق، فتقصف أظافرهما وأهملت وتيبس حولهما جلد سميك خشن.

حانت منها التفاتة، فرفعت عينيها لتنظر إلى أكبر صورة نصفية معلقة على الجدار .. منظر جانبي لها، وهي عروس،

مطرقة العينين حالمة، وقد توسد كفها البض صدر البدلة السوداء الأنيقة، فبدا الكف أكثر نعومة وطراوة، بأنامله الدقيقة، وأظافره المطلية الطويلة.

لاحظت اليوم ـ وكأنها أول مرة ـ بقعاً سوداء ظهرت على ظهر يدها وكفها، على ساقيها ووجهها .. لم تكن تراها من قبل إلا في وجوه وأيدي كبار الممثلين حينما تقترب الكاميرا من وجوههم، لتخترق مسامهم، وتظهر على الشاشة مع خلجاتهم، وأحاسيسهم، فتكشف المشاعر والأعمار معاً.

أكثر ما كدرها اليوم أن بعض شعيرات قاسية بدأت تظهر في ذقنها وخديها، نافرة سوداء واضحة، والأكثر من ذلك أنها بدأت تخط شاربا كثا لابد من وسيلة لإخفائه.. لذا بدأت تكثر من المساحيق لإخفاء الغضون، والبقع والشعيرات .. وكأنها تحاول بأستار من حرير إخفاء سنوات العمر الهارب منها، والمرسوم بقسوة على وجهها، وعلى كيانها كله، والذي بدأت تلحظه .. ويفزعها أن يلحظه الآخرون أيضاً.

فجأة بدأت تشعر بهذه التحولات، وبقدر ما كانت تحاول إخفائها، بقدر ما كانت تتجسد لها، وتتضح أكثر، وأكثر، فتجد نفسها تهرب بنفس القدر إلى السنوات التي هربت وإنفلتت من بين يديها، تاركة أثارها المتراكمة على جسدها، وكأنها عوامل تعرية عاتية تركت ركاماً، ومحقت نضارة وجمالاً لم يبق منهما

شيئاً، وكانت السلوى دائماً في الهروب إلى مجموعات الصور القديمة وزفرات الحسرة على شباب ولىّ فجأة، ودون مقدمات .. وخطابات حب قديمة، كانت تتغنى بجمالها، ونعومتها.

كانت تظن أن الإسترجاع سيعيد إليها ثقة مفقودة، لكنها شعرت أنه يعمق لديها أكثر الشعور بالغربة عن هذه المرأة، التي تطالعها يومياً في المرآه صباح مساء.

هربت من هذه الأفكار إلى ثوب جديد أنيق، إرتدته، واستعدت لتذهب إلى طبيب أخر، لكنها إضطرت أن تعود مرة أخرى إلى مرآتها، تستفتيها، وتستطلع مافسد من زينتها، وتُصلح ما أفسده الزمان .. وظلت تبحث بعصبية بين أقلامها الكثيرة عن قلم ترسم به قسمات جديدة تحدد عينيها، وقلم تخطط به حاجبيها، وآخر تظلل به النضارة المنفلتة من وجنتيها، وفي بحثها إكتشفت أن هذه الأقلام على كثرتها لا تفي بالغرض، ولا تحقق المطلوب، فهي تحتاج إلى شحذ وتهذيب، لتؤدى دورها بإتقان، فأمسكت بالموسى لتشحذها بعصبية.. فانفلت الموسى من يدها ليجرح أحد أصابعها بقوة خاطفة .. جرح عميق غائر .. سقطت منه بقعة دم قان على ثوبها، تلتها بقع أخرى .. أفسدت الثوب.. ومالبثت بقع الدم أن تتالت بشكل مثير .. لكنها لم تُفزعها .. بل أهاجت في نفسها فيض من ذكريات كلها دامية .. ولم تحاول الإسراع لإيقاف هذه القطرات من دمها .. بل تركتها تتساقط .. مرة على

الثوب .. ومرة تمسحها بمنديل صغير في يدها .. وتنظر إليه .. وكلما إنطبعت فيه بقعة صغيرة ضغطت على إصبعها لتكبر دوائر الدم على الثوب والمنديل معاً، لترى فيها صبية صغيرة أفزعتها يوماً ما بقعة دم .. لم تر مثلها من قبل فهرعت إلى أمها تصيح أمام زوارها، لتخبرها في هلع طفولي برئ .. أنها مصابة بالبهارسيا .. فقامت أمها مسرعة من وسط الزوار لتجذبها، وتنحى بها جانباً محاولةً إسكاتها، ومحاولةً إفهامها ماطرأ على حياتها من تغير مفاجئ بسبب بقعة الدم هذه.

هامت بين براءة الصبا لبرهة، ثم أفاقت لتجد نفسها مازالت تحملق في الدوائر الحمراء المنتشرة، وهي تضغط على إصبعها مرة أخرى؛ لتسكب بقعة كبيرة .. راحت تحملق فيها .. لترى تغيراً عميقاً في مسار حياتها، أدخلها دنيا جديدة، من خلال بقعة دم أفسدت ثوب عرسها الأبيض .. وغابت عن الوجود من خلال دائرته الكبيرة القانية مستشعرة مرة أخرى ما أحدثته هذه البقعة في نفسها من لذة موجعة، وألم شجى.

ودفعها الخيال مرة أخرى في سرحه طويلة لتضغط على إصبعها بقسوة لم تعهدها في نفسها من قبل، فانفجر منه الدم كأنه نافورة إتسخت بها الطاولة أمامها، وطار رزازه ليستقر على الحائط، وسقطت بقع أكبر وأكبر على الأرض، فلما رأتها أسقطت كفها إلى أسفل؛ لتترك دمها ينزف بهدوء، وهى مستسلمة تنظر

بألم ولذة إلى بركة الدم التي تكونت فذكرتها بيوم تحولت فيه من مجرد زوجة صغيرة إلى أم .. خرج جنينها من وسط مذبحة تشبه هذه البركة الصغيرة على الأرض ورزازها المتطاير على الطاولة والحائط.

وابتسمت من فرط ما ألمت نفسها بهذا النزيف الدامى دون أن تشعر .. وقامت أخيراً لتضمد الجرح، وتبدل ثوبها .. ونظرت إلى المرآه مرة أخرى قبل أن تقوم فهالتها الصفرة التي كست ملامحها، وأكدت لها أن سنوات يأس وتبلد بدأت تزحف على قسماتها مبكراً دون هوادة .. وأن محاولاتها اليائسة لإعادة الدموية إلى عروقها ووجنتيها لن تجدي!! وزيارة الأطباء لن تعيد ماضاع، حتى لوذهبت إلى طبيب آخر وثالث ورابع .. فاستسلمت في يأس، ونكست رأسها إلى الأرض في إنكسار .. وحدقت فلم تجد حتى بقعة الدم الهاربة التي تبحث عنها وتستجلبها من بين سنوات اليأس .



في هذه الأيام صارت الشمس أكثر دفئاً، صارت أشعتها الربيعية تحرك في داخلي مكامن لم أعهدها في نفسي!! صارت حاجتي أقسى من أن يهدئها الدفء .. رحت أتقلب وأمرغ رغبتي على الأرض لأسحقها، وبعد لم تنسحق.

قطـة

.. فـوق العادة



(١)

أنا قطة مخملية الملمس .. ناعمة الأطراف .. لا أنشب أظافري أبداً .. ليس ثمة ما يجعلني أثور .. أرقد ناعسة في ظلال المدفأة .. كل عملي أن أقلب جوانبي بكسل في إتجاه اللهب .. أفتح إحدى عينيّ نصف انفتاحة لأومىء إلى لا شيء .. وأروح مرة ثانية في نُعاس كسول أجوب فيه بخيالي الأملس في ظروف من حولي .. فليس لي ظروف أفكر فيها .. ليس لديّ مشاكل .. كل حياتي أن أنام في الدفء وأستيقظ على لمسة حنان وقُبلة من صاحبة البيت؛ لأصحو على وجبة لا يحلم بها، ولا يعرفها غيري من القطط.

لكن داخلي أحياناً يتمرد .. ويرفض .. وأستنكر رفضي هذا رغم أنه رفض أبله بطء .. يتمثل في الإشاحة برأسي عن طبق تقدمه ربة الدار .. وتعتبره هذه البلهاء رفضاً .. وتسرع لتجيبنى إلى ما أريد دون أن أطلب ..

ليس أسهل من هذه الحياة!!

(٢)

لا أكلف نفسي عناء مضغ طعام من عظام، طعامي لحم مهترئ لين .. ولما المشقة ؟! طالما هناك من يوفر لي ذلك .. ولا يدري أن غيري من بني جنسي أو غيرهم لا يعرف عنه شيئاً، كما يبدو .. ليس أعجب من هذه الحياة!!

أنا لا أريد شيئاً .. ولا أرغب في شيء .. طاقاتي الإرادية معطلة .. فقط أتأمل..

جلست يوماً على حافة الشرفة أستشعر دفء الشمس، ورحت أرقب جمهرة القطط المتسكعة على الطريق تتشمم القمامة .. ياللعجب؟ قطّان يتشاجران على ما؟!! على جراب ملقى به نفايات.

حقا إذن ما يقولون: أنا لست كغيري من القطط .. صاحبة الدار إشترتني بمبلغ كبير من أحد حوانيت بيع طيور وحيوانات الزينه في حي راق .. حملّها صاحب الحانوت شهادة ميلاد لي .. توضح أصلي وسلالتي النقية.

خلال أيامي التي قضيتها هنا لا أشعر إلا الدفء والتدليل، ولا أكل إلا الطعام اللين .. ولا أسمع إلا المديح في أصلي، ووصف خصالي، وجمالي.. أمام الزوار .. أدركت أني وسام على صدر هذا البيت وسكانه.. يفخرون بي أمام الناس .. أنا جزء مكمل لأناقتهم .. وردة يزينون بها صدورهم .. ويحلو لهم الحديث

عني.. على ما يبدو لي أنه ليس أهم مني في هذه الحياة!!

(٣)

من خلال مراقبتي لغيري من القطط .. وإحساسي بجمالي وأنوثتي الحريرية .. بدأت تساورني مشاعر جديدة .. أستشعرها للمرة الأولى .. ورحت أكذّب مشاعري .. ليس من المعقول أن أحتاج لغيري من القطط !! أنا لست مثلهم .. أخفيت مشاعري هذه في الرقاد والإستدفاء، طوال شتاء قارس البرودة .. لكن في هذه الأيام صارت الشمس أكثر دفئا، صارت أشعتها الربيعية تحرك في داخلي مكامن لم أعهدها في نفسي !! صارت حاجتي أقسى من أن يهدئها الدفء .. رحت أتقلب وأمرغ رغبتي على الأرض لأسحقها، .. وبعد لم تنسحق.. قويت وصار صراخها داخلى كالسياط تجعلنى أموؤ بصراخ ، ماذا عساني أفعل؟؟

كعادتهم .. راحوا يلبون إحتياجاتى .. تركونى أخرج ، لم أكن أفكر يوماً ما في الخروج من هذا الفردوس .. وعلى الطريق .. وقفت أتأمل عدداً من القطط لم يعجبني أحد .. أمعقول أن تلمس جلدتهم الخشنة المشعثة .. فروتى المخملية!! إستنكرت أن يحدث.. عدوت إلى الدار ثانية أموؤ بعذابين.. عذاب خلقته حاجتي، وعذاب خلقته لي سلالتي النادرة .. من يصدق أن المستويات والسلالات والطبقات صارت تحكم عالمنا حتى في أداق مشاعره العفوية!!

ترددت كثيراً .. وتأملت أكثر .. كنت على ثقة أن أصحاب الدار سيحققون بغيتي .. راحوا يبحثون لي عن قط . من أصل ومحتد عريق مثلي .. مرت أيام أثقل من أن أتحملها أنا يامن كنت أظن أنه ليس أسهل من هذه الحياة..

(٤)

رحت أموء بعذابي .. أقلقت كل سكان الدار .. ملوا موائي .. ضاقوا به وبي .. فتحوا الباب وألقوا بي بعنف على الدرج الرخامي البارد .. إرتطم رأسي الصغير بحافته .. رحت أفكر من جديد ، وأسترجع فوج القطط الشوارعية، لا أتصور أن أكون لأحدهم!! لأول مرة إستخدمت عقلي المعطل من أثر الدفء والحنان واللحم اللين .. أحس أن حاجتي أشد من اعتزازي بهذه السلالة العريقة اللعينة.

إتجهت إلى الطريق أمسح ظهري وذيلي في الحوائط .. هبطت الدرج نحو أول قط شوارعي. فكلهم سواء في نظري .. قلت له بلمسة من فروتي الناعمة: أترى أنا لست ككل القطط .. فقد إضطررت ، وقلت بداخلي : يبدو أنه ليس أقسى من هذه الحياة!!

مسافر .. قلتها وكأني أتمناها .. مسافر أو هارب .. أو مختبىء .. أو نذل .. أو جبان .. كلها مرادفات لمعنى واحد، وصفات لشخص واحد .. ربطت نفسي بخسته والتي أدركتها مبكراً.

ظل حائط



دقــــوا البوابة الحديدية بدوي إهتزت له الجدران ، فمتلأ قلبي رعباً، وإرتعد الصغار الثلاثة من حولي هلعاً .. ونظرات أعينهم تحملق في براءة بلهاء لا تعى ما يحدث!!

كان عليَّ أن أهبط مسرعة بحملي الثقيل، الذي كدت أن أضعه بين خطواتي المتعثرة من هول ما أتوقع .. وكدت أنزلق عند آخر درجات السلم الطويل ، لكني إستندت وتمالكت جسدي، دون قلبي، الذي هبط قبلي أكثر من ألف درجة.

تساءلت عن الطارق وأنا أوقن تماماً من بالباب .. بحكم الخوف أو بحكم العادة، تساءلت وأنا أحاول أن أفتح عدة مزاليج وأقفال، تفصلني عن الخارج، وكأننى أسكن قلعة حصينة من أربعة طوابق.. وحدي وصغاري الثلاث وأبوهم .. وحمل أحشائي الذي أنتظره بعد أيام..

تباطأت في فتح الباب الحديدى وأنا أسمع الصوت داويا يقرع آذانى ورأسى بمائة مطرقة: "البوليس .. إفتحى" نظرت من هوتي السحيقه إلى أعلى درجات السلم لألمح الهلع المتوقد في عيون

الصغار، الذين طالما أرعبتهم جدتهم بقولها "العسكري جي" .. وكان هذا القول وحده كفيل بجعل كل منهن تدفن رأسها في أقرب صدر كنعامة جبانة تترك جسدها النحيل الواهن لأسياخ الرعب مخبئة رأسها في الرمال.

فتحت الباب وسط تعالى صرخات صغيراتي اللافحة لأذنىّ كالسياط، فتحته ليُدفع بي بعيداً عن الطريق باندفاع جنود يلبسون السواد، كليل داهم لا يغشى ولكنه يسقط فجأة من السماء، ويُطبق على بيتنا دون غيره من بيوت الأرض .. ورغم ما أعانيه لفحتني نظرات من خارج الباب كالسياط، فأغلقته، لا بل صفعته أمام هذه العيون النهمة التلصص .. وأغلقت داري على الليل الداهم في صورة قوة غاشمة.

لم أستطع التحامل لعدو درجات السلم، التي لا أعلم كيف صعدتها، لتمسك الصغيرات بأطراف ثوبي، ويتعلقن به وبي، ويجذبنني صارخات العيون، والحناجر، مذهولات من هول مايقع أمامهن من بطش ، لا تستطيع العين أن تصدقه وهي تراه.

في ثوان معدودة .. كانت الثياب كلها ملقاة على الأرض، وكل الأغطية والوسائد ملقاة في كل مكان، كل ما حملته الأرفف قُذف به، وكل ماتحت الفراش، ومافوق الصوان كل شيء بُعثر .. ولم ينج حتى المذياع، فُتِح ظهره، وكل الأدراج تبعثرت محتوياتها، ونحن واقفات في ذهول صارخ ، نبكي وكأننا وسط أطلال زلزال

أو سيل جارف لم يُبقي شيءً على حاله.

انتهوا من هذه الحجرة .. ليدخلوا الأخرى، والثانية، والثالثة، كل في آن واحد يُطيح بيديه الأثنتين كل ما يقابله .. يفتش في كل ركن وكل شق، بل وكل ثقب.

أنهوا مهمتهم بسرعة مجنونة وكأن السياط تسوقهم، ويسبقون البرق في خطفه للأبصار .. وانتهوا من تحطيم كل شيء ، ثم أخذوا يتراكضون فوق الأشلاء التي بعثروها مجتمعين ، معلنين نهاية مهمتهم .. والصغيرات يصرخن فيصممن أذنيَّ عن سماع أصوات التحطيم والسكب والتكسير .. وأحاول أن أهدئهن، أحمل واحدة، أربت على الثانية، أما الثالثة فوجدتها وقد تكومت في ركن قصي مشدوهة محملقة وقد ارتسم في عينيها رعب العالم كله، وكأنها ترقب معركة حربية تتطاير فيها الأشلاء وتتفجر الدماء .. وهي من مخبئها ترتعد، ولا تتصور أن لهذا الهول نهاية.

وأخيراً .. هدأت العاصفة التي إجتاحت كل شيء .. وتقدم مني ضابط شاب إهتزت ملامحه أمام عيني المغرورقة بفيض من دموع تحجرت فيها، لم أرَه لكني سمعت صوته فقط . لم أسمع كلماته فقد سدت الدموع المتحجرة مآقيَّ وأذانيَّ، وعطلت كل حواسي، وسدت حلقي حتى أني لم أستطع أن أنطق بالرد على أسئلته .. أو ربما جاوبته ولم أسمع صوتي.

مستحيل أن أكون قد سمعت ما قال ووعيته واستحضرت إجابته ثم نطقت بها .. لم أدر من ذلك شيئا.. كل ما أدريه أني إستطعت أن ألفق كذبة في كلمة واحدة: "مسافر" .. رددتها عدة مرات .. مسافر .. مسافر .. وكأنه مسافر في داخلي.

وتشاور إثنان من الرجال التسع الذين داهمونا وقالوا عبارة واحدة :

"ليس لها نشاط معروف .. ولا داعي للقبض عليها" ..

وانسحبا من المكان وتركا كلماتهما ترن في أذنيّ .. وانسحب من خلفهما الرجال السبع الآخرون، وكأنهم يخرجون منتصرين من معركة تاركين جثث ضحاياهم طريحة الرمال والدماء، وصفقوا الباب من خلفهم .. وأنا في ذهولي الدامي .. لا أسمع، ولا أرى من بين دموعي، التي تفجرت شلالاً هادراً إرتفع له صدرى وهبط مئات المرات، وارتج له جسدي كله ، فأرعب بكائي الصغيرات، فزددن في صراخهن، وأنا لا أسمعهن ولا أعي مما حدث إلا أكذوبتى «مسافر .. مسافر» .. وتعليقهن عليّ .. ولا أكاد أصدق أني نجوت من هذه المجزرة.

مسافر .. قلتها وكأنى أتمناها .. مسافر أو هارب .. أو مختبئ .. أو نذل .. أو جبان .. كلها مرادفات لمعنى واحد، وصفات لشخص واحد .. ربطت نفسي بخستة التي أدركتها مبكراً.

تدافعت التساؤلات إلى ذهني المضطرب .. لم تكن تساؤلات بل

كانت إجابات .. إستنكارات دهشة!! كيف تركني أواجه هذا الموقف وحدي مع الصغيرات المذعورات !! كيف تخلى ؟! وسقطت على أول كومة أمامي وسط الدار الهارب ربها ، ووضعت يدي على رأسي ألملم الأفكار وأحصرها، وقد تبعثرت في رأسي، كيف رضيت بهذا الرجل ؟! بل كيف أصفه بأنه رجل؟! أنا إبنة الحسب والنسب أقف هذا الموقف؟! كيف رضيت به في البدء؟! هل لمجرد أني كنت قد جاوزت الثلاثين؟! وأتلمس الزواج كحلم بعيد، أرضى أن يضمني ومثل هذا الرجل بيت واحد، لمجرد أن يقال تزوجت .. ولأمحو عن نفسي صفة العنوسة!! ليتني ظللت عانساً وما كان ما رأيت.

تدافعت الصور في رأسي ، تذكرت قصة بائعة خضروات تسكن سطح إحدى البنايات المجاورة، وكيف داهمت الشرطة حجرتها، فجرى أحد الصبية إلى زوجها على المقهى ليخبره.. وكيف كان موقفه، إذ جرى مسرعاً إلى داره، معلناً أن كل ما تم ضبطه في البيت له، وأن زوجته لا علم لها بأي نشاط مشبوه يزاوله.. حماها ولم يتركها تواجه تبعات أمر هي شريكة فيه بالفعل.. وتقتات منه.

وأنا يتركني ويهرب .. يقفز من سطح إلى سطح .. ويتركني نهباً لمصير مجهول .. لم أستطع مقارنة حالي بحالها .. ولم أستطع أن أندهش لما حدث .. ملأني الأسى .. وكأنه قدر محتوم

كنت أنتظره .. أو كان لزاماً عليَّ أن أتوقعه ، وأترقبه في أي يوم.. أوليس هذا الهارب هو نفسه الذي تركني يوماً في أحلى أيام الحب الأولى .. أيام كنا نختلس الحب والقبلات في الحدائق الهادئة، وفي الشوارع النائمة على أطراف المدينة .. يوم ظهر لنا من بين الأشجار شابين إدعيا أنهما شرطة آداب .. وجذبني أحدهما، وأخذه الآخر وسار به .. وخفت يومها كما لم أخف في حياتي، وجريت في الطريق كالأرنب المذعور، .. جريت لأبكي وأبكي .. وأبكي .. دون أن أنطق بشيء عما حدث .. وفكرت يومها أن أتركه، فخفت أكثر من شبح العنوسة البغيض .. وتمسكت به رغم تخليه عني .. أو لعلي تمسكت برغبتى في الزواج .. أي زواج وأيا كان .. فكرت يومها في تركه وفسخ الخطبة ، وخلع خاتمه من أصبعي .. لكني لم افعلها .. «وظل رجل ولا ظل حيطه».

تنسمت ذكرى ذلك اليوم البغيض، وقبضته القاسية التي أطبقت على صدري، وإعتصرت قلبي .. إستشعرت تلك الليلة الأسنة العذاب، و"ما أشبه الليلة بالبارحة" .. ووجدتني أحاول أن أخلع خاتمه من يدي اليمنى .. فلم أستطع إذ تنبهت إلى أنه إنتقل إلى يدي اليسرى منذ سنوات سبع .. فخلعته هذه المرة ولآخر مرة دون تردد .. ودون خوف .. بل تخلصاً من الخوف.

جابت البلاد طولاً وعرضاً تزور أوليائها الصالحين، وتزور أديرتها في قلب الجبال، وتشعل الشموع وتنذر النذور وتُقبِّل العتبات، فقد قيل لها: أن كثيراً من الأمور لا تُحل بالعلم .. ولكن تحل بالعشم الذي يصل إلى حد الإيمان.

الدكتورة متشاهرة


SHAMS
7/4/92

جلَسَتْ مطرقة، خجلة مما هي مقدمة عليه، بعد أن أعطت أذنيها لقصص الإعجاز الخرافي الفاتحة للشهية، لدخول الأمل الكاذب، وإستقراره في القلب، وأقبلت عليها خادمتها ومعها تلك المرأة التي راحت تقص عليها، وتؤكد لها .. لكنها بدأت فجأة تتساءل دون أن يصلها الرد على تساؤلاتها .. ومع ذلك إستسلمت للخرافة، وقامت لتدخل خلف المرأة العجوز التي تقدمتها حاملة "المشاهرة" وحاولت جاهدة أن تجذبها من يد العجوز لتتفحصها، فتمسكت بها المرأة، تمسكاً شديداً وكأنها تحمل سر الأقداس.

راحت تغمر المشاهرة في قدر الماء، الذي أخذت تتمتم، وتحسبن وتحوقل عليه، وهي تمرغ فيه الأيقونة التي تحملها، فتقرقع في الماء، مصدرة صوتاً متميزاً لتخبط الودع، والمحار والخرز، وإرتطامه بقاع القدر، وبالماء الذي يحويه.

طلبت منها العجوز أن تتوضأ من هذا الماء، وهي تتمتم بكلمات لا معنى لها، محركةً الماء بيديها مرة، وبالقواقع التي أسمتها

"المشاهرة" مرة أخرى.. وما انتهت من الوضوء حتى أمرتها المرأة العجوز فيما يشبه الأمر العسكري أن تشرب بعضاً من الماء الذي تعكر، فعافت نفسها أن تشرب منه، وحاولت الإعتراض، فصدر لها أمر قاطع بأن تشرب وتتكل على الله، وأطاعت صاغرة مستسلمة، وتجرعت باشمئزاز بعضاً من هذا الماء.

ماكادت تضع الإناء بهدوء وهي تغالب ضعفها وإستسلامها للخرافة أمام الحلم والأمل .. حتى ألقت المرأة العجوز بالمشاهرة فى فتحة ثوبها وتلقتها من أسفل، ثم ما لبثت أن شهقت وألقت بالماء المتبقي فى وجهها على حين غرة .. فأفزعتها بشدة، وجعلتها تقفز من مكانها من هول المفاجأة وهي مبتلة الوجه والثياب .. تشعر بمهانة إقشعر لها بدنها كله.

أجهشت بالبكاء بحرقة، وهي تهرول خارجة من المطبخ، والمرأة تصيح من خلفها:

– خير .. أللهم إجعله خير، ربنا فك كربها، وحل عقدتها .. يارب أرزقها وعوض عليها .. بحق ... وحق ... وحق ...

لم تسمع، ولم تع ما همست به المرأة العجوز التي راحت تمسح على رأسها، وتربت على ظهرها، وكأنها ترقيها ، وهي تؤكد أن الأمر مقضى بإذن الله ، طالما بكت بهذه الحرقة.

الدكتوره "متشاهرة" قالتها المرأة العجوز" وكررتها وكأنها تقرر واقع أكيد، خَبَرَته وجربته آلاف المرات.

ـ الدكتورة "متشاهرة"

ـ فتساءلت من بين دموعها؟

ـ متشاهرة ؟!

ـ يعنى مكبوسة.

ـ كيف؟!

ولم يأتها الرد فكررت السؤال؟

ـ يعنى إيه؟؟؟

ولم يصلها الرد مرة أخرى .. فبكت بحرقة أكثر، وانتفض جسدها بشدة، وغسلت الدموع وجهها، وعقلها الذي أسلمته للغشاوة لدقائق، حينما إستسلمت لهذه العجوز الشمطاء، رغم أنها تعلم علم اليقين إستحالة أن تحمل مرة أخرى، إستحالة علمية أكدتها إستشارة عشرات من كبار الأطباء، ومئات من التحاليل، وصور الأشعة التي خضعت لها في موطنها وفي الخارج، وصدَّقت الإستشارة العلمية بالجزء المستنير من عقلها ـ الذي تدرب على تقنين الواقع بالتجارب العلمية – ورفضتها بالتعلق بالأمل الكاذب، حتى لو جاء هذا الأمل عن طريق الإيمان بالغيبيات، وجابت البلاد طولاً وعرضاً تزور أوليائها الصالحين ، وتزور أديرتها في قلب الجبال، وتُشعل الشموع، وتنذر النذور، وتقبِّل العتبات، فقد قيل لها أن كثيراً من الأمور لا تُحل بالعلم .. ولكن تُحل بالعشم، الذي يصل إلى حد الإيمان بإمكانية تحقيق

حلمها ببركة الأولياء، وكثيرات قبلها تقربن بقرابين ودعوات، ونذور وقُبلت منهن، وصعدن، وهبطن الدرج عشرات المرات، ولفن ودرن حول المقصورات، أو الأضرحة، فنلن المراد بالإتكال الكامل من القلب.

كل ذلك وكانت ماتزال تحترم الجانب المستنير من عقلها وتؤمن بالعلم، وإلى جواره .. الإيمان بأن يستجيب الله لدعائها ببركة من تتقرب بهم إليه من كل الملل والنحل، ولكن هذه المرة رفض الجزء المضيء الإستسلام للخرافة فبكت، وتساءلت مرة أخرى:

– يعنى إيه متشاهرة؟

– يعني مكبوسة.

– كيف؟

ولم يأتها الرد .. فقامت ودخلت غرفتها، وأغلقتها من خلفها وراحت تبكي بحرقة، وهي تبعثر الكتب على كل جانب، وتلقي بها يميناً ويساراً بحثاً عن كتاب بعينه، وهي لا تكاد ترى من بين دموعها، حتى عناوين الكتب على كبرها، ووضوحها.

وأخيراً وجدت ضالتها، قاموس ضخم، أخذت تقلب صفحاته، وهي ممسكة به بعصبية شديدة، محاولة إيجاد صفحة تحمل أحرف هذه الكلمة "متْشَاهْرَةَ" عبثاً وجدت كلمة "إِشتَهَرَتْ" المرأة أي دخلت في شهر وِلادتها، فلم تجد معنى لما قيل تشخيصاً لحالتها على لسان هذه العجوز، فألقت بالكتاب، وبحثت في حركة

هيستيرية عن غيره، وهي تنتفض، وقلبت صفحاته، فلم تجد بغيتها، فمسحت عينيها بكلتا يديها، وخرجت مهرولة لتكرر السؤال .. فجاءها الجواب.

ـ متشاهرة يعنى مكبوسة.

ـ كيف؟!

– يعني دخل عليك رجل حالق .. أو أحد يحمل لحماً أو باذنجاناً.

فتفجرت ضاحكة من بين دموعها الغزيرة التي غسلت قلبها، وأماطت الغشاوة عن عقلها في لحظة تطهير، ضحكت وبكت فى آن واحد، وفجرت بلاهة الإجابة بركاناً خامداً بداخلها، وصرخت مرددة.

ـ «الدكتورة متشاهرة» .. وضحكت وبكت فى آن واحد.



جلسا قريبين صامتين ينظران إلى السماء، وكأنهما وسط هذا الحريق في حديقة غناء، تصلح كخلفية لموقف الحب الذي إستولداه من قلب الخراب؛ ليهربا إليه.

الخطر..
موتاً أو حباً



إنطلقت صفارة الخطر فَزِعة ومُفْزِعة .. فتدافع الجميع يهربون .. تاركين ما بأيديهم، هلعين مرتجفين .. يهبطون الدرج متدافعين بالأيدى والمناكب، يكاد ينكب بعضهم على بعض .. يهرولون في ذعر، يكاد بعضهم أن يدوس البعض فيقتله، قبل أن تقتله القنابل المتساقطة دون تمييز .. فقد أدركوا الخطر قبل أن تعلنه الصفارة اللعينة .. إذ إعتادوه خلال الأيام القليلة التي بدأوا يتعايشون فيها مرغمين مع هذا القهر اليومي المسمى بالحرب .. والذي يُجسِّد أمامهم يومياً شكل الموت ككائن حي، له وجه كريه، وأظافر ينشبها في الأجساد .. ويسيل الدم فيغرق الطرقات، وعفن يفوح من كل ركن، يهدم البيوت فيحيلها أكواماً من الحجر والحديد، تطل من بين أنقاضها أذرع وأياد.. يَجسم الحجر عليها، ويخفي الأجساد المعلقة بها.

وسط هذا الهلع اليومي .. والرعب المميت .. جرت وسط من يجرون تبحث عن ملاذ .. وقد تجمدت دمعة كبيرة في عينيها السوداوين المكحولتين بالسهر والأرق .. دون أن تسقط على

وجهها الأسمر المصفر جزعاً وخوفاً من مجهول لا تعلمه.

إندست وسط الزحام جسداً وسط الأجساد التي إختلطت، وتماسكت وكأنها جسد واحد، وكان مكانها ملاصقا للجدار، وهي لا تكاد تبين بين من يحيطونها، بجسدها الصغير النحيل . تتلمس في الجدار حماية غير أكيدة، ودفئاً لا ينبعث من هذا الحائط البارد الرطب داخل "البدروم» المهجور منذ سنوات، والذي إتخذه سكان الحي دون عمد أو تخطيط مخبأً لهم من الموت، متناسين أن البناية المكونة من ستة أدوار قد تنهار عليهم جميعاً، وهم في هذا الدرك الأسفل، الذي يهبط عن سطح الأرض عدة أمتار، وينضح بالعفن والرطوبة حتى أن جدرانه المبللة قد باشت وإهترأت أو تكاد.

دارت بعينيها المذعورتين وسط هذا الحشد من الناس، تبحث عن وجه تعرفه، أين أهلها؟ جيرانها؟ أي من معارفها؟! أطلت من فوق الأكتاف ومن بين الرؤوس بوجهها الصغير الدقيق الملامح، فلم تلمح أحداً، فاشتد ذعرها، وإستبد بها الخوف، وزاد شعورها بالوحدة، والوحشة، والغربة، تبحث عن وجه واحد تألفه وكأنها لا تريد أن يسقط الموت الداهم فيجدها وحدها.. وكأنه غول مرعب أو رخ كبير يهبط فوق الرؤوس .. وتريد أن تختبئ منه.

صعب عليها أن تكون وحيدة في إنتظار المجهول الذي تسمع دويه يصم أذنيها ولا تراه .. وكأن وجود عيون تعرفها – ولو على

البعد – سيحول دون ما تخشاه .. وحملقت في العيون من حولها، كلها عيون يملأها الخوف والهلع، مابين مطرقة إلى الأرض، وشاخصة إلى سماء "البدروم" الداكنة السحب، والتي تكاد أن تمطر على رأسها ومن معها .. من شدة إهترئها بالبلل، حتى أن بعض أجزائها قد تساقط بالفعل من شدة الإهتزاز، ومن هول الدويّ الذي يرج الأرض والسماء.

وسط هذا الخطر المحدق إلتقت عيناها بعينين واسعتين، بعثتا في نفسها لوناً من الطمأنينة لم تعهده من قبل .. فتعلقت بتلك النظرة التي يمتزج فيها الخوف بالحنو. وبصيص من شجاعة مصطنعة، تعلقت بهذه النظرة وثبتت عينيها عليها، وجمدت نظرتها إليها، فلم تتحرك عنها.. متعلقة بأهداب واهية، متشبثة بقشة في خضم رياح عاتية وموج هائج .. وكانت تلك العيون هي الأقرب إليها .. بعد جولة بناظريها مسحت كل الوجوه من حولها .. وإستقرت أخيراً .. ومالبثت أن إمتدت يد في الظلام مُتَشجِعة بهذه النظرة الطويلة .. إمتدت لتربت عليها أولاً .. ثم تقبض على كفها مُشجِّعة مواسية .. تضغط على الكف الصغير، وتضمها وكأنها تحتضنها، ومالبثت النظرات أن ذابت .. وأُسْدِلت الأهداب خجلاً مشوباً بلون من الإطمئنان .. فانحدرت الدمعة الجامدة في المآقي .. دموع سوداء مكتحلة بالحزن .. وبمشاعر متضاربة مضطربة.

(٢)

إنطلقت صفارة الأمان التي ماعادوا يشعرون معها بالأمان، ولا يصدقونها، لعلمهم بما يعقبها من هول ثان، فهي لا تمنح أمناً إلا لساعة أو لبضع ساعة .. فلا يكادوا يخرجون من مخبأهم .. حتى تُجبرهم صفارات الخطر على الهرولة، والعودة مرة أخرى.. غير مفرقة بين ليل أو نهار، فالقصف شديد والدوي يصم الآذان، والدخان يملأ السماء نهاراً، ويُضيؤها ليلاً، وإن كان القمر قد إختنق ومات، ولم يعد يراه أحد.. ولحقت به النجوم التي فقدت بريقها حتى تلاشت.

إنطلقت صفارة الأمان فإنطلق الجميع مهرولين أيضاً .. لا يلوي أحدهم على شيء، فقد توقفت حياتهم تماماً .. وشلّت مصالحهم جميعاً، إلا من الإعداد لهول قادم، بإحضار طعام أو غطاء يكفيهم إذا ما طالت حبستهم في قلب الخطر والموت لساعات .. ترتعش فرائصهم خوفاً وبرداً وجوعاً.

خرجت هي أيضاً ثملة منتشية بما صادفها .. تجر خطواتها، وتنظر إلى الأرض تارة، وتحملق في الوجوه تارة، علها تجد أحد ذويها أو جيرانها، فلم تجد .. لكنها حمدت الله أنه لم يرها أحد ولم يشعر أحد بما صادفته، وما بدَّل مشاعرها من الخوف إلى الإطمئنان المشوب بالنشوة وعدم المبالاه بما يحيطها من هول ..

وقد إغتسلت نفسها بتأثير تطهيري إستشعرته حينما خرجت من الظلام الأزرق في البدروم .. ليصافح ضوء الشمس عينيها، وكأنها خارجة لتوها من دار سينما بعد مشاهدة فيلم رومانسى رقيق، وليس فيلماً عسكرياً دموياً مخيفاً.

سارت الهوينا ترمقه على البعد، حتى عرج عند ناصية الطريق، فعرجت معه، وسارا متجاورين يتحدثان، فعرفت أنه يسكن نفس الدار التي تقطنها، نازحاً من إحدى القرى المتاخمة في ضيافة جيران لهم، وتذكرت نظراته اليومية العميقة الحانية إليها . عند كل خطر في طريقهم إلى المخبأ.وكيف كانت هذه النظرات تجذبها يومياً من هول محقق إلى دائرة من الطمأنينة المؤقتة المسروقة من زمن رديء يعيشاه .. ولم تكن تدري مبرراً لما تبعثه في نفسها هذه العيون من إطمئنان في غير موضعه.

صعدا الدرج معاً .. فلم يصادفا أحداً .. وكأن العالم قد خلا لهما، دون مبرر فتلهّى الناس عنهما، كل منهم ذاهل وكأنه يوم الحشر العظيم، صعدا دون أن يدريا، حتى تركا شقتها، وترك هو شقة ذويه الذين لجأ إليهم، ووجدا نفسيهما على السطح تظلهما سماء ملبدة بدخان يكاد يحجب قرص الشمس.. فجلسا قريبين صامتين ينظران إلى السماء وكأنهما وسط هذا الحريق في حديقة غناء تصلح كخلفية لموقف الحب الذي إستولداه من قلب الخراب ليهربا إليه.، ولم تطل جلستهما، حتى بدأت أصوات

الدوي مرة أخرى .. وأعقبها صوت الإنذار بالخطر متقطعاً يثير الفزع والضيق معاً .. إذ يتمنى من يسمعه أن يُخرِسه حتى لا يوقظه من حلم جميل.

أيقظها الصفير المتقطع من سكونها، وألهب مشاعرها المرتجفة، فالتصقت به لتحتمى فيه، ووقفا ملتصقين بالحائط على السلم، خائفين أن يهبطا فيراهما أحد .. ويتساءل أين كانا؟! ولماذا يختبأن في السطح بدلاً من خوفهما من الوابل الرهيب المتساقط من السماء؟؟ وتمسّك كل منهما بالآخر إحتضنه وكأنه يريد أن يخفيه ويذوّبه، أويذوب فيه.

ذابا بالفعل .فعرفت وسط هذا الهول الذي يشبه القيامة، مشاعراً لم تعرفها من قبل، وجربت ما لم تجربه من قبل، ويكفي طعم القبلة الأولى ، وهو طعم لا يستشعره المرء إلا مرة واحدة في العمر كله ، هي أول مرة.

أفاقت من غفوتها القصيرة على صوت أمها، تهرول على الدرج، وتصرخ منادية إياها بصوت مرتعش وَله .. فقد إستشعرت غيابها فلم تراها في المخبأ .. ولم تراها في البيت، أو في الطريق إليه، ولم تنزل معهم حينما أُطلقت صفارات الإنذار مرة أخرى، فعادت الأم تجرى وتتكفيء صارخَة عليها.

(٣)

إزداد رعبها فجمدت على الدرج لا تستطيع صعوداً أو هبوطاً، فالخوف يهطل من السماء، والخوف يحاصرها من أسفل، تمسكت به أكثر ولبُدَت فيه كفأرةٍ مذعورةٍ .. والتصقا .. إلتحما .. وما لبثت مشاعرها أن تحولت من الخوف .. إلى النشوة .. إلى الألم .. ألم عنيف يجتاح كيانها كله .. لا تعرف مصدره .

إستشعرت لزوجة حاره .. تنسكب على ذراعيها، وخصرها، وساقيها وتحيط بهما، وهما يهويان على درجات السلم الذي تخضبت بدماء لا يعرفان مصدرها .. ولم يدريا هل كان دمها؟! ام دمه؟!



باتت تتحسر على نفسها كلما رأت أحداً قد حقق ذاته في أي مجال، بل أصبحت تغبط كل من هو راضي بما تحقق له .. ولو كان قليلاً .. ورغم وعيها الكامل بطبيعة مشاعرها هذه، لم تستطع أن تحقق ما ترجوه، ولم تستطع أن ترضى بما حققت !!

مكان على الأرض


SHAMS
SHAMSUDHIN
6/5/92

وقفت في الردهة الفسيحة المزينة بقطع الموزايك الأندلسية ، وخشب الخرط العربي ، والأروقة الواسعة المحاطة بمقاعد مطعمة بالصدف الأرابيسك، والستائر المخملية التي توحي بالعراقة، ورفعت عينيها تتأمل السقف العالي للمكان ، وساءلت نفسها .. لماذا هذه الإرتفاعات غير الأدمية ؟! فالمكان ليس مسجداً ولا كنيسة ، ولا حتى محكمة !! .. لكن هذا الإرتفاع يوحي على أي حال بالهيبة ويضفي على المكان رهبة وجلالاً .. كما أن إتساعه يوحي بالرحابة والراحة .. فلماذا تجد نفسها ضجرة به؟!!

ماكادت تسرح مع خلجات نفسها ، وتأملاتها بعيداً عن المكان، إلى ما كان في الماضي البعيد القريب .. مستغلة فترات الإنتظار الطويلة التي تقضيها يومياً على باب هذه القاعة الكبيرة، التي يجتمع فيها عِلية القوم، إجتماعاً مغلقاً .. في حين يقف بالباب عدد غير قليل من «الشماشرجية» والسعاة، وبعض المُحبذتية من رجال الصحافة، الذين وجدت نفسها واحدة منهم، لا عمل لها سوى الوقوف بالباب حتى تصدر لها الأوامر بالتحرك، فتبدأ

العمل .. ولكن أي عمل هذا الموكل إليها؟!! عمل تافه لا يتفق بحال مع قدراتها وملكاتها، فهي تُقدِّر نفسها بأكثر من ذلك بكثير، صحيح أنها لم تنجز طوال حياتها شيئاً يُذكر، لكن إعتزازها بذاتها يجعلها ترفض ما آلت إليه طموحاتها العريضة الجامحة، فقد كانت طفلة تحلم بأن تكون يوماً ما ممن يُشار إليهم بالبنان، فحاولت وحاولت طويلاً، وفي دأب، على مدى سنوات الصبى والمراهقة والشباب، إلى أن صارت في الحلقة الخامسة .. وبعد لم تفعل شيئاً يُذكر .. حاولت أن تقرض الشعر، ثم أفاقت لتجد نفسها لم تحظ إلا بالسخرية، وحاولت في الرواية والقصة، وشتى الفنون، نشرت هنا، وهناك بعضاً مما كتبت.. لكنها بعد لم تصل إلى ما كانت تتمنى لنفسها، ولا ما كانت تطمع أن تكون، ولم يُقدَّر لها أن تنال شيئاً مما تصورت أنها تستحقه .

باتت تتحسر على نفسها كلما رأت أحداً قد حقق ذاته في أي مجال، بل أصبحت تَغبِط كل من هو راض بما تحقق له - ولوكان قليلاً - ورغم وعيها الكامل بطبيعة مشاعرها هذه، لم تستطع أن تحقق ما ترجوه، ولم تستطع أن ترضى بما حققت !!!

فجأةً أخرجها من تأملاتها معالى الوزير، الذي خرج من القاعة المغلقة؛ ليأمرها أن تنادي له " ذراعه اليمين " ... ووجدت نفسها تلبي بسرعة، تجري وتتكفئ في الردهات الواسعة الطويلة، تبحث

عمن يريده معالى الوزير.

عادت بالمطلوب، لتجلس مرة أخرى على الباب في إنتظار أمر آخر، وتطول الجلسة أو تقصر، ليخرج معاليه بمطالبه التافهة .. دور شاي للسادة الوزراء المجتمعين، أوعلبة كبريت كي يشعلوا سجائرهم .. فكأنهم يجلسون على مقهى !! وبالطبع لابد من تلبية هذه المطالب؛ فهم يناقشون قضايا هامة وعامة، ويقررون مصير أمة، بينما هي وأمثالها من صغار الموظفين عليهم أن يكونوا في الخدمة من أجل الأعمال الدنيا والتافهة.

مرة أخرى.. وثانية.. وثالثة.. وعاشرة، وبين كل منها ساعة، أو بعض ساعة من الإنتظار المُمل المُضجِر، الذي تقطعه في التفكير، ويقطعه خروج معاليه مُتجهماً؛ ليلقي أوامره، أو ليعطي تنبيهاته، أو ليؤنب على تقصير لم يحدث، ويلوم على مطلب تأخر، فيهرول تابعه ليقول له : أي أوامر يافندم ؟ سيادتك تأمر .. وتنظر هى بإستنكار لهذا التابع الأمين، رجل فارع الطول، متأنق، له أسرة هو ربها .. وأبناء .. وزوجة يلهب رأسها بالحديث عن أهميته وكفاءته!! وكيف أن معالى الوزير لا يمكن أن يستغني عنه وعن خدماته الجليلة .. وأنه لا يستطيع إنجاز شيئاً بدونه، وأنه يعجز عن أتفه الأمور دون مساعدته، والزوجة المسكينة تُصدّق، وتتشدق بما يقوله الزوج الهمام أمام الجارات، وهي مؤمنة تماماً بأهمية زوجها، وخطورة شأنه.. لكن المهم والعجيب أنه سعيد بما يُنجِز

من مهام .. وزوجته وأبناءه فخورون به!!!!!

وهمهمت:

مهم فعلاً أن يخلق المرء لنفسه هالة، ولعمله أهمية وهمية - مهما كان هذا العمل - ومُهم أن يشعر أن العالم سيتوقف إذا لم يمارس هو مهامه الجسام على تفاهتها.

ومرة أخرى أخرجها معالي الوزير من تأملاتها حينما خرج فجأة؛ ليصب جام غضبه على أول من تقع عينه عليه، وقد كانت هي أول من وقعت عيناه عليها، وبقدر ما أحرجه السادة المجتمعون معه، وبقدر ما وبخه رئيس المجلس .. بقدر ما صب على رأسها وابلاً من الإهانات .. ولم تستطع أن تقول شيئاً، فقط حاولت أن تدافع عن نفسها .. لكنها أصلاً لم تكن تعلم لماذا يؤنبها ؟ وعلى ما ! وماذا فعلت لتستحق هذا التوبيخ ؟؟!!

حاولت التماسك، فلم تبك كما هي عادتها كأنثى، في مواجهة المواقف الصعبة، فقط مرت الدموع في عينيها، فإبتلعتها قبل أن تسقط، وخرجت من فمها بعض عبارات الدفاع، التي لم تع معناها، والتي لم يسمعها معاليه، ولم يكترث لها أصلاً، وإستمر في لومه وتأنيبه لها.

إبتلعت الغصة، وأكملت اليوم حتى الظهيرة، وكان عليها أن تغادر المكان حتى ينعم السادة الوزراء بمأدبة الغذاء.. ثم يعاودوا إجتماعاتهم المغلقة.

كان عليها أن تغادر، ؛ لتتناول غذائها في أي مطعم صغير حقير، أو لتعد إلى دارها رغم بعدها الشديد.

خرجت من الردهات الفسيحة التي كادت تضيق بها وعليها، حتى كادت تعتصرها، بعد أن شعرت وكأن السقف الشاهق الإرتفاع قد أطبق على صدرها، فلم تعد تستطيع أن تتنفس، وكادت تختنق.

خرجت من المبنى الكبير عبر ردهاته الطويلة، التي لفظتها إلى ميدان فسيح، يعج بالناس والحافلات والأصوات العالية، ولم تشعر بكل من حولها، فقد كانت مُطبقة نفسها على مشاعر متضاربة تموج داخلها، وتُحدث هديراً يُصمّ أذنيها، ويطغى حتى على الحوار الداخلي الذي أدارته بينها وبين معالي الوزير وردت فيه إعتبارها وكرامتها التي تبعثرت أمام العيون المحملقة من حولها، وراحت ترفض فيه هذا الوضع، وهذا المكان الذي إنتهت إليه مجرد تابع ضمن الحاشية والأتباع.

هبطت السلّم الطويل إلى هوة سحيقة لتعبر الميدان تحت الأرض، ولم تشعر بكل ما حولها.

قطعت الطريق الطويل تحت الأرض؛ لتصعد السلم إلى السطح وهى شبه مغيبة تصارع نفسها، وفجأة شعرت بالهواء يلفح وجهها على بوابة الخروج من باطن الأرض، وتنبهت حينما رأت شخصين يحملقان في وجهها ويضحكان، تنبهت فوجدت أنها

تكلّم نفسها بصوت مسموع، وأنها تُشيح بوجهها، وتُلوِّح بيديها، وكأنها في معركة حقيقية.

خجلت من نفسها كثيراً، وخافت أن يظنها الناس مجنونة، فحرصت ألا تسرح إلى هذا الحد، ولتكتم غيظها، ولا تُبدي أي إنفعال ظاهر، ووقفت على المحطة، في إنتظار الذي يأتي ولا يأتي، فكلما أقبلت حافلة تكالب عليها الناس وتزاحموا، فلا تستطيع الصعود، ولا تجد موضعاً لقدمها، فتنتظر الحافلة الأخرى، وكلما طال الإنتظار إزداد قلقها، متى ستذهب؟؟ وكم تستغرق من وقت لتناول الغذاء؟ ومتى تعود؟ لتأخذ موقعها الدائم على باب الغرفة المغلقة، وكرهت فكرة العودة، وأصابها ضيق أشد عندما تذكرت أنها لابد أن تعود إلى نفس المكان الخانق رغم علو سقفه، إنه ليس المكان المناسب لها.

وظلت تنتظر، وحينما أقبلت أول حافلة قررت أن تزاحم لتجد لها مكاناً .. وتمتمت : من يريد مكاناً لابد وأن يزاحم الآخرين ليفوز به.

تحاملت على نفسها، وتحملت كل اللكذات والمداهمات لتصعد وتجد مقعداً خالياً في الصفوف الأخيرة، وذهبت إليه على الفور لتجلس، فوجدت من يمنعها بحجة أنه محجوز لغيرها، حاولت إفهامه أنها ما تحملت هذا الزحام ليقول لها أنه محجوز، ثم محجوز لمن؟! وهل هناك من هي أحق منها به، دون أن تتعب، أو

تزاحم الرجال والنساء لتفوز به؟ وعبثاً حاولت فلم يكن لما قالت أي صدى أو جدوى، فإستماتت يداها على حافة المقعد، وألقت بأوراقها، وحقيبتها عليه، ودخلت فيما يشبه المعركة لتفوز بهذا المكان وهي تصرخ .. إنه مكاني .. إذن أين مكاني؟ إنه مكاني.

فجأة وجدت أوراقها مبعثرة على الأرض ويديها تُنتزع نزعاً من على حافة المقعد الذي تشبثت به، وقد جلست أُخرى عليه .. وراحت تلملم أوراقها من على الأرض، وتبحث عن نظّارتها التي سقطت في خِضم المعركة، وهي لا تكاد ترى شيئاً بدونها، وسقطت دموعها التي حبستها طويلاً في المكان الذي ترفضه، وأطلقتها لمكان إستماتت لتفوز به

وتمتمت وهي تزحف على الأرض .

أين مكاني إذن؟ .. أين مكاني؟



شعور يلازمنا حيال الموت في اللحظات الأولى .. إن الحياة ستتوقف ثم ندرك بعد ذلك أن العجلة لابد دائرة، وأن الحياة اليومية التافهة تجرنا في دوامتها، وينتقل مافي البؤرة بالأمس إلى الهامش،وتضيع الحكمة كلها التي نتشدق بها على مدى أربعين يوماً على الأكثر.

الحزن .. على صفحات الصحف



بـدا الحديث بلا معنى حتى كدت أصرخ فيهم جميعا ليصمتوا، وسط هذا الجو القاتم الحالك يتناقشون في إتساع الحذاء وهل هذا قياس سليم؟

لابد من تغييره، والثوب الأسود لابد أن يمحى من على صدره هذا التطريز الأبيض حتى يتناسب والموقف .. خاصة وأن من سترتديهم أم ثكلي..

كدت أصرخ فأبدو كالمجنونة .. وسط أناس يحاولون مداراة حزنهم ودهشتهم في الحديث ، أي حديث ومهما كان موضوعه.

منذ وصلت وأنا أسمع أحاديث لا معنى لها .. لكنها تتصل بما حدث من بعيد أو قريب .. عن القدر، والإختيار، وحال الدنيا، والعمر، والمكتوب .. وقد بدا لي هذا الحديث على جديته قديم، معاد، مكرر وممل .. وأقل كثيراً من الموقف .. حتى بدا حديثاً أبله، وكلاماً فارغاً لا يُعبِّر عن شئ..

كدت أصرخ لأقول لهم أصمتوا.. إن الأمر أكبر من ذلك بكثير، ولا معني لما تقولوه!!

مالبث الحديث أن تطرق بشكل مباشر إلى سرد ما وقع بتفصيل ممطوط ممل، أشبه بمن قال تفصيلا : "أكل ثم دخلت عليه بكوب الماء فوجدته قد مات" .. أو من يروي إنهدام دار على ساكنيها أو إشتعال حريق هائل بمزيد من الوصف التفصيلي لما سبق وقوع الحادث من أمور تافهة.

كدت أنفجر ضاحكة وسط هذا السواد لتداعي هذه الأفكار في مخيلتي .. ولعلها بدرت مني بالفعل إبتسامة ساخرة لاحظها البعض.

وجدتني أنشغل عن الحديث بأفكار أكثر تفصيلاً على تفاهتها كيف تلقيت الخبر؟؟ وماذا كنت أفعل آنذاك؟ وكيف تصرفت؟!.

لا عليَّ من هذا كله الآن المهم أني أسرعت بالمجيئ.. ليس للمشاركة والعزاء فقط .. ولكن لأني عجزت عن التعبير عن إحساسي وحدي... بكيت للحظات ثم جفت دموعي .. شعرت أنني أريد أن أصرخ .. لكنني لم أفعل، تماما كما تراودني أفكار كثيرة أحجم عن ترجمتها إلى أفعال ... ماذا سيقول عني الناس؟ لماذا تصرخ وتعوي لمجرد وفاة صديقة لها .. إنها ليست أختا ولا حتى قريبة .. هذا هو تفكير الناس هذه الأيام .. لا يحزن المرء بصوت عال وفعل تلقائي عنيف إلا على أقرب المقربين..

رحت أسترجع في ذهني الخطوات التي خطوتها إلى هذا المكان المكلل بالسواد .. خطوات تافهة أيضا، لكني إسترجعتها

في لحظات الصمت التي سادت المكان .. كيف اخترت ما أرتديه.. على ندرة مالدي من ثياب سوداء .. وكيف إهتممت أن أبدو أحسن حالاً .. ولكن دون أن أرسم بالأقلام أي تعبيرات .. ولكن لا بأس من قلم أسود يحدد الحزن أكثر في العيون، ويبدي الشحوب أكثر، ويرسم الأسى تماماً، كما نفعل في الأفراح نهتم بالثوب، ونرسم بالألوان البهجة والفرحة، والبشر والحبور مهما كان بداخلنا من سواد .. هي مناسبة تجمُع لابد من الإحتفال بها والإهتمام بمظهرنا فيها ..

ركبت سيارتي شاردة أفكر فيما سأقول لأهل المتوفاه .. ولوالديها بالتحديد .. لا لن أقول شيئاً فليس للكلام معنى في هذه المناسبات .. ولا حتى عبارات العزاء .. لن أقول «البقية في حياتكم».. أي حياة لهم بعد الآن؟ .. وأي بقية وماذا سيفعلون بهذه البقية؟!

شعور يلازمنا حيال الموت في اللحظات الأولى .. إن الحياة ستتوقف ـ ثم ندرك بعد ذلك أن العجلة لابد دائرة وأن الحياة اليومية التافهة تجرنا في دوامتها، وينتقل مافي البؤرة إلى الهامش .. وتضيع الحكمة كلها التي نتشدق بها على مدي أربعين يوماً على الأكثر.

مازلت في الطريق أبحث عما يجب أن أقوله .. لم أنتبه إلى القطار القادم عن يساري أسفل الجسر كدت أضيع في ثوان لولا

صفارة عالية أيقظتني من تفكيري.. وهذا أيضا عرض تافه طالما لم يتم، ولم يسفر عن نتيجة عنيفة كالتي أجابهها ولا أجد ما يعبر عنها من كلمات .. سأقول لهم: (إن المصيبة فادحة .. والخسارة لا تعوض) .. لا فكأنني أُجسِّد لهم مصيبتهم .. ماذا أقول لهم؟!

الموقف جديد عليَّ تماماً .. أستشعره ولا أستطيع التعبير عنه أريد أن أصرخ وأنا في الطريق .. لكن الناس سيعتبرونني مجنونة فلأنتظر حتى أصل .. ولابد أنه سيكون مهرجان للبكاء والعويل والصراخ .. فالفتاه كانت شابة .. وسأنخرط في المولد، وأشارك في الذكر، وأنجذب في الزار.

وصلت .. ولابد من أخذ مجموعة مناديل لإيقاف سيل الدموع المدرار، ودخلت .. فلم أسمع صوتاً .. ولم أجد ما أقول ولا حتى شد الأزر .. جلست على أول مقعد دون أن أعي الوجوه من حولي.. الكل متشح بالسواد، والكل في صمت ، وقد إرتدى على وجهه قناعاً من الحزن الصامت .. حتى الحزن أصبحت له موضاته وصرعاته . لم يعد من اللائق أن يُعبِّر المرء عن حزنه بصوت عال.. لابد أن يكتسي الحزن بالكبرياء، صمت دائم ، أو دموع رقراقه تسيل في هدوء، وتُجفَّف بطرف منديل أنيق مطرز بالدانتيل .. تماماً كنجمات السينما. أما حزن الغلابة والصراخ، ولطم الخدود، وشق الصدور فلم يعد مناسباً للعصر .. ليس من باب الإيمان وحسب.. ولكن من باب الأناقة.

وجدتني أقول في نفسي : بالفعل هو مظهر غير أنيق أن نتمرغ في الأرض، ونهيل التراب على رؤسنا، ونصدر أصواتاً غير مناسبة، ونشد شعورنا !! بالطبع سيفسد كل ذلك تصميم الأثواب الأنيقة والتسريحات المرتبة .. هذه أمور تليق بأخريات .. وتذكرت إحداهن.

كنت صغيرة أعود من الروضة التي كانت قريبة من مستشفي عام، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها الحزن المُفجِع، رأيت إمرأة تجري خارجة من باب المستشفي، تصرخ وتشد شعرها الذي هوشته وأطلقته، وتلطم خديها وتجز رقبتها بطرحة سوداء ، كل هذا دون تركيز أو ترتيب، وتجري .. تجري لتدخل دون وعي إلى حانوت صغير، وتشتري شيئا صغيراً، لم أتبينه، تفتحه على الرصيف في أول بركة ماء قذر قابلتها، فتحول لونها في ثوان إلى الأزرق الداكن .. وأخذت منه بكفيها ولطخت وجهها ورأسها "بالنيلة" وجرت مرة أخرى دون وعي، أو لعله وعي كامل بما أصابها وبفداحته .. جرت مرة أخرى؛ لتختفي خلف سور المستشفى، حتى لم أعد أرى منها إلا صوتها الناحب الذي هز كياني الصغير .. وتشكل دوائر من صدى حولي أشعر بها أكثر مما أسمعها .. وجَمُدت في مكاني، فالمشهد في ذاكرتي .. يُبعَث مرة أخرى فيهزني، وأجدني أقارن بقسوة بين هذا الحزن، وهذا الحزن، وتذكرت إعلاناً عن نوع من الصابون يقول: فيه صابونة

وفيه صابونة .. وتبينت بالفعل أنه ليس كله عند العرب صابون .. فحتى الحزن أنواع .. كدت أبتسم مرة أخري!!

إستيقظت من سرحتى الطويلة على أصوات تتحدث عن المرض وتفاصيله، وأراء الأطباء .. وملابسات الحالة والعلاج في الخارج .. والميّته وأخر مكالمة تليفونية عبر الأقمار الصناعية .. وأخر كلمات تفوهت بها، وتاكيدها للجميع بأنها ستُشفي وستعود، وفيض من أمل في الحياة تدفق على لسانها .. رغم إدراكها وخبرتها بخطورة مرضها، وتفاصيل الإجراءات الخاصة بالموت في الغربة، والكل مشدوه يستمع بنهم إستطلاعي إستفزني .. حتى تطرق الحديث إلى التغسيل والتكفين .. وكيف أن الكفن كان من الحرير المطرز ، وأن أربطته كانت من الدانتيل الألماني، وكأنه فستان عُرس مستورد .. ماالداعي لهذه التفاصيل الآن ؟؟ .. تحاول الأم أن تصرخ ، أن تقول شيئاً فيسكتوها بحقنة مخدر.. ويمنعوها من الكلام لماذا؟ لماذا لا يتركوها تقول ماتريد .. تندب تولول ، حتى تنهمر دموعي نهراً يغسل ما أشعر به طبقة سميكة على صدري ونفسي .. منعوها،، خافوا عليها .. لكني خفت على نفسي .. أكاد أختنق، أريد أن أقول شيئاً فلا أستطيع .. لابد أن هذا الكم من الأسي سيتكوم بداخلي ورماً سرطانياً دفيناً طالما لم أفجره .. ويدخل من يحمل صحيفة ليمر بها علينا، ويدخلون في حديث من نوع آخر عن النعي وأسماء العائلات، والأنساب،

والألقاب، والتقديم والتأخير، ونسيان إسم فلان، وأسرح بعيداً عن هذا الحديث العقيم في لقب دكتوره الذي أصروا على تثبيته سابقاً لإسم المرحومة، رغم أنها بعد لم تكن قد حصلت على الدرجة التي تمنحها اللقب .. منحوه لها ميّته .. ما جدواه؟! لم يخدموها به، لكنها حلقة في دائرة التفاهة الدنيوية التي نحياها.. من على الأرض يهتمون بأمور أظنها لا تهم كثيراً من سقطوا في باطنها!!

يالسذاجة الناس .. في نفس الجريدة زوجات وأمهات يُعلن عن إستمرار حزنهم على من ماتوا .. ويخاطبون الموتي فهل يسمعوهم؟! ربما.

الموتي يسمعون بالضروره .. بأرواحهم يسمعون، ويحسون بمن يحزنون عليهم .. لكنهم لاشك لا يقرأون الصحف إليومية ... صفحات العزاء من الأحياء إلى الأحياء .. مجرد إعلان عن موعد جنازة أو إحتفال بذكري، ولكن مخاطبة الموتي بعبارات صارخة تعلن الإستمرار في الحزن والبكاء حتى اللقاء .. ما هذا العبث.

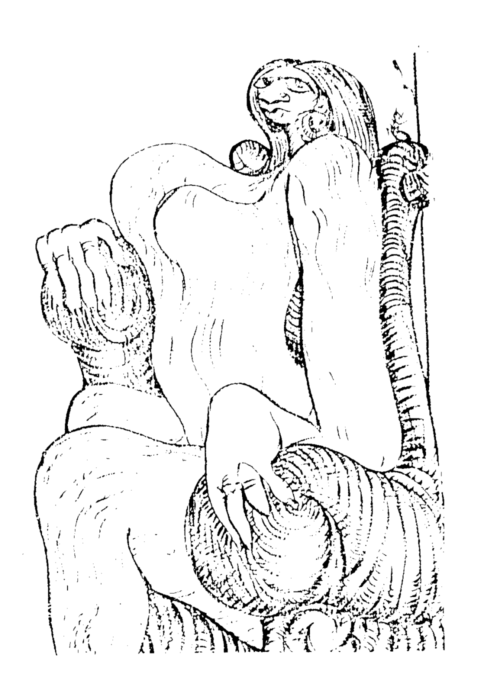
كدت أضحك بصوت عالي .. وأفقت لأجد الإجابة على السؤال على وجه الأم الثكلي المنوّمه.

ممنوع أن نحزن بعفوية .. ممنوع أن نصرخ .. يجب أن يُخدَّر الحزن، وينام الصراخ في الصدر قبل الحلق .. وطالما الحزن ممنوع فليس أقل من أن نعلن حزننا على صفحات الصحف.



زاد شعورها بالخوف من العيون، بعد أن أصبحت هذا المسمى الغريب عليها «المربية الفاضلة» ، فماذا لو رأتها إحدى تلميذاتها تسير في الطرقات ويدها في يد شاب صغير في مثل عمرها؟!

حضرة..
المربية الفاضلة



خَرَجتْ تحمل بطاقة العضوية في نقابة المعلمين .. فقد أضيف إسمها إلى قوائم رجالات التعليم رغم أعوامها الإثنين والعشرين .. وفي صباح إليوم التالى وجدت احدي تلميذاتها تحمل لها ورقة مطوية زُيّن رأسها بعبارة لم تألفها .. بل ولم تطأ مسامعها من قبل كنداء لها . "حضرة المربية الفاضلة" وابتسمت في أعماقها إستكثاراً على نفسها أن تكون هي المعنية بهذه التسمية . "المربية الفاضلة" تعبير جديد كأنها لم تسمعه في حياتها من قبل.

حقيقة لم تفكر من قبل في معني هذه الحروف مجتمعة "الـ م ر ب ي ة .. ا ل ف ا ض ل ة" .. ولكن لا، لقد سمعتها مئات وآلاف المرات وقرأتها .. لكن مدلولها هذه المرة قد إختلف .. فقد أصبحت هاتان الكلمتان تعنيانها هي بالذات.. وليست تلك النوعية من السيدات السمينات المترهلات اللواتي أخفت العدسات السميكة بريق عيونهن ، واللاتي يرتجف لصوتهن آلاف الطالبات في طابور الصباح.

لم تكن لتتصور أنها هي بأعوامها الاثنين والعشرين .. ووزنها

الذي لم يزد عن خمسين كيلو .. وسمرتها الشاحبة، ورأسها الصغير الحليق .. وملامحها الدقيقة .. لم تكن لتتصور أن هذه الصفات ستصبح يوماً ما ، مدلولا حقيقياً للفظتيّ : المربية ، والفاضلة.

أكدت العبارة الواردة في رأس الرسالة .. ما تدَّعيه بطاقة عضوية النقابة .. لقد أصبحت دون أن تدري إحدى هذه الشخصيات التي يُنظَر لها بشئ من الإجلال .. ولو من قبل تلميذاتها الصغيرات اللاتي كن ينتظرنها على بوابة المدرسة، يقدمن لها زهرة، ويلقين عليها تحية الصباح .. والسعيدة فيهن من تواتيها الشجاعة لتتقدم منها وتقبلها، أو تقول لها عبارة ثناء على ثوب ترتديه، أو تعرب لها عن حبها بحمل حقيبتها المثقلة بما تضم من دفاتر.

يبدو أنها بالفعل قد صارت إحداهن دون أن تدري .. ولابد أن تنظر لنفسها من هذا المنظار، طالما أن الناس صاروا يرونها من خلاله، وأن الدولة تراها كذلك، وتعترف بها كواحدة من رجالات التعليم .. ومربية فاضلة .. ويبدو أن عليها أن تلتزم بتصرفات جديدة تمليها هذه النظرة.

إستعادت ذلك كله وهي في جلستها الأسبوعية على المحطة .. ليس في إنتظار القطار ككل الواقفين والجالسين معها .. ولكن في

إنتظار القادم من بعيد من خلف السور المواجه للمحطة .. والذي إذا ما رأته ستقف ولن تقعد .. كما تفعل كلما أقبل قطار.

كانت كلما أقبل قطار تنظر حولها ، فتري الجميع يلملمون أنفسهم ويهرعون لاستقباله والتعلق به .. ولا تدري لماذا كانت تفعل مثلهم ولكن بحركات متباطئة موهمة بأنها كانت تشاركهم إنتظاره.. إلى أن يصعد الجميع وتتحرك الحافلة، فتعود إلى جلستها وحيدة، إلى أن يهل ركاب جدد يتجمعون من حولها .. وكأنهم وهي معهم أصحاب هدف واحد هو وصول القطار .. لكنها في الحقيقة كانت في إنتظار القادم من خلف السور .. فلم تكن عيناها تحملقان إلا في إتجاه السور، وليس في إتجاه مَقدِم القطار .. وكان أي ظل قادم من خلف السور يجعلها تتململ في جلستها وتحدق محملقة متبينة الملامح الجسدية في ظلال الاضواء الخافتة الممتزجة بآخر أنوار النهار الراحل.

لم تكن تعرف أحداً ممن حولها ، ولم يكن المفروض أن تهتم بنظراتهم لها، أو تصورهم لهدفها ، إذا كان متفقاً مع هدفهم أم لا؟؟ وقد لا يكون أحداً مدركاً لوجودها على الإطلاق بين الزحام .. أو ليشغل باله بوجودها ودواعيه .. لكنها كانت تهتم بهم كثيراً – ربما شعوراً بالذنب – وكأنها تعرفهم جميعاً بتعاقبهم كلما أقبل قطار أو رحل ثان وثالث .. وغالباً ما كان يطول الإنتظار لسبعة أو ثمانية قطارات وهي تمثل نفس الدور مع قدوم كل قطار

.. تهب واقفة وسط الوقوف وتهرول أو تدعي الهرولة بين المهرولين كي تلحق بلا شئ .. وتتنفس الصعداء مع إقلاع كل قطار لتعاود النظر للقادمين .. وتعاود الكرة .. وإمعاناً في الحذر .. إذا مارأت القادم المرتقب كانت تتلفت قبل القيام، وتنظر في ساعتها وتُبدي قلقاً مفتعلاً يُخفي فرحة بالقادم الذي لا يشعر به من حولها .. ولا يلحظ قدومه إلاَّ هي ... وتتظاهر بأنها قد ملت إنتظار القطار فهي دائماً أول المنتظرين، وتتجه إلى الخلف دون أن تُصب هدفها، فلن تُسلمه كفها الصغير إلاَّ هناك خلف سور آخر بعيداً عن المحطة ومن عليها.

قررت اليوم أن ترحم نفسها من هذا الإنتظار القلق .. ومن التجول في الشوارع الهادئة شبه المظلمة متخوفة من العيون .. وزاد شعورها بالخوف من العيون، بعد أن أصبحت هذا المسمى الغريب عليها " المربية الفاضلة" فماذا لو رأتها إحدى تلميذاتها تسير في الطرقات ويدها في يد شاب صغير في مثل عمرها .. لابد أن مثل هذا التصرف لا يتفق وجلال اللقب الجديد.

وكان ما أرادت فقد فكرت في إستغلال المسمى الجديد طالما أن الناس يرونها من خلاله بنظرة أكثر إحتراماً .. وطالما أن وقار المسمي قد يمنح علاقتها مسحة من الجدية .. وأقنعت رفيقها بأن يلتقيا في نادي النقابة .. وفي الموعد ذهبت إلى هناك، وجلست في إحدى القاعات الفسيحة .. وراحت ترقب الجلوس من حولها ،

معظمهم قد جاوز الأربعين، وبعضهم على المعاش، يقطعون الوقت في أحاديث وثرثرات.. والبقية أسر وأطفال وسيدات شمطاوات أو عانسات ممن إصطبغن فعلاً بلقب "مربية فاضلة"، ووجدته بالفعل أليق بهن منها .. وشعرت أنها غريبة في هذا العالم .. وأنها ليست منه .. وآثرت الإنسحاب .. ولكن ماذا لو جاء فلم يجدها؟!

عليها إذن الإنتظار، فقد ينتشلها حضوره من هذا الإحساس العميق بالغربة، ومن النظرات التي بدأت تتساءل عنها .. وأدركت أن هؤلاء جميعاً أو الكثيرين منهم أسرة واحدة .. أسرة التعليم .. يعرفون بعضهم البعض .. ويُسلِّمون بحرارة، ويستعيدوا ذكريات مشتركة لخدمة طويلة في مناطق ، أو مدارس واحدة .. ووجدت نفسها تتسمع لما يصل إليها من أحاديث .. وإن كانت نظراتهم المختلسة إليها تزيد شعورها بالغربة والندم على إختيار هذا المكان بالذات ليكون لقاء حب ..

إنتشلها القادم المرتقب ، فخفت لمصافحته بكثير من الجد، وبإيماءات توحي بالجدية، وكأنه أخ أو خطيب.. لكنها شعرت أكثر بالعيون تحيطها، فأخذته لتنتحي به جانباً، فليس من المعقول أن يجلسا في مهب هذه النظرات.

كانت قد إستكشفت المكان بتجوال بصرها، وأدركت أن أنسب مكان هو الشرفة .. فخرجا إليها .. وجداها خالية من الناس

تماماً.. لكن بها مقاعد ومناضد متناثرة توحي بأنها أعدَّت للجلوس، وأن جمهور هذا المكان ومرتاديه هم الذين هجروها وتركوها خالية، وتجمعوا كالخلايا يثرثرون في الخدمات الطبية التي توفرها النقابة، .. وفي مستوي خدمات النادي .. والمواد التموينية التي توفرها الجمعية للعاملين في حقل التعليم.

إختارت مقعدين قرب السور المفضي على واحة خضراء .. خضرة لم ترها من قبل .. والهدوء يلف المكان الجميل المطل على حديقة الزهرية .. وماهي إلاَّ لحظات ورأت مجموعة من الغربان تحط على أشجار ونخيل الحديقة ثم تطير وتحلق وتنعق بلا معني.. إلا إفساد اللوحة الخضراء التي شعرت لأول وهلة أنها ديكور جيد للحب .. فجاء هذا السواد والنعيق وكأنه نذير شؤم.

لم يدُر حديث طويل حول إختيار المكان، ومدي مناسبته للقائهما، ومُغالبة مشاعر الغربة، ومحاولة إقناع النفس الرافضة بهذا الجو الجديد، الذي هو على أي حال في مأمن من العيون .. والذي يمنحها الرضا عن نفسها، ويحجب عنها الشعور بالتناقض "كمربية فاضلة" في الصباح، وتلميذة مدارس تترك يدها لرفيقها يجوبان الشوارع الهادئة على غير هدي في المساء.

وسط الحديث الدائر في حلقة واحدة هي بث ألاطمئنان إلى هذا الإختيار .. بدأت تشعر بالعيون ترقبهما من خلف زجاج

الشرفة .. وكأنهما كائنان هبطا من عالم آخر .. على كوكب لا يضم كائنات مشابهة ولم ير مثلهما.

لم تدم لحظات طوال .. إلا وقد أخذت الحماسة البعض فشكي لإدارة النادي، التي بعثت بمن يوقظهما من جلستهما التي أفسدت الغربة والغربان حلاوتها، وراح هذا يسألها عن بطاقة العضوية في النادي .. فمن غير المعقول أن يضم نادي المعلمين .. فتاة لها هذه السمات .. فتأكد الموظف المسئول من أن البطاقة سليمة .. فمن إذن رفيقك؟! تلعثمت، ثم منحته صفة قرابة .. لكن مثل هذه القرابة لا يخفى إفتعالها على المربِّين .. فما كان منه إلاَّ أن سحب البطاقة ورمقها بنظرة جعلتها تقف لتسير خلفه إلى الإدارة .. وهناك أفاقت على عبارة : «أهذه تصرفات مربية فاضلة ؟!» ومئات من علامات التعجب المرتسمة على الوجوه على طول الطريق من الشرفة إلى المكتب ، وكأنه طريق صحراوي طويل تحفه أشواك الصبار .. واستعطفت باكية لتسترد البطاقة، وخرجت من المكان تجرحها نظرات الغربان ويملأها الشعور بالغربة عن المكان ، فهي لا تنتمي له ، ولا تنخرط في سلك من فيه.. إلاَّ بحمل البطاقة.

خرجت والكلمات ترن في أُذنيها : "هنا ملتقى المعلمين والمربيين الأفاضل .. وليس ملتقي عشاق، تُضرب فيه مواعيد غرام!! أهذه تصرفات مربية فاضلة؟! وشعرت بضآله كبيرة، يبدو أنها غير

جديرة بهذه التسمية .. حقيقة هي لم تخطئ بل مارست حقها في الحب واللقاء البرئ .. لكن هذا كما قال "ليس سلوك المربيات الفاضلات" .. وعند أول مفترق طريق مزقت البطاقة.. وأسلمت كفها الصغير لرفيقها، ليجوبا الطرقات الهادئة الآمنة.



علا الوجوه رعُب واضح ليس خوفاً من المجهول .. ولكنه إنتظار المحتوم .. وما أقسى إنتظار القدر، خاصة إذا ما عرفناه .. وقدِّر لنا أن نُجابهُه وجهاً لوجه ونحن نعرف تفاصيله..

قطار إلى السماء



بذلتُ جهداً كبيراً كي أدرس إتجاهي، وفوق خريطة متشابكة الخطوط كالمتاهة إستطعت بصعوبة معرفة طريقي، واختيار القطار الذي سيقلني إلى وجهتي الصحيحة .. ومن سوء الحظ أني نجحت في إختياره بدقة .. وأخذت أتابع بنظري لافتات المحطات التي يقف عليها، ومع كل وقفة يزداد تأكدي من أنني إخترت الطريق السليم .. ورغم ذلك – وككل العصابيين – أخذت أدقق النظر في الخارطة المعلقة داخل القطار والمثبت عليها كل أسماء المحطات، ومع كل وقفة أُطل برأسي لأتأكد من أن القطار يسير في الطريق الصحيح، ورغم علمي باستحالة الخطأ أو شبه إستحالته في هذه المدينة على كبرها، وترامي أطرافها، فجأة توقف القطار تحت الأرض دون مبرر، وبدأ الركاب التسعة الذين يشاركونني هذه المقطورة، على اختلاف جنسياتهم ينظر كل منهم إلى الآخر، نظرات إستنكار مشوبة بتعاطف من وقعوا في شرك واحد، وطال وقوف القطار، وبدأت المشاعر تتضارب، وكل يفكر وحده في خاطر واحد أكيد .. هل سيأتي قطار آخر يصطدم بهذا

القطار وتكون الواقعة؟؟

ظهر فجأة سائق القطار أو مساعده، ليفتح الأبواب الموصلة بين العربات، وسار في إتجاه نهاية القطار، وتصورت كما أعتقد أن الجميع تصوروا مثلي، أن هناك عطل، وكتمنا أنفسنا داعين أن يُصلح هذا العطل سريعاً، ويتحرك القطار قبل أن يأتي القطار التالي ويصطدم به، وتصبح كارثة.

جاء وقع أقدامه حتى نهاية القطار مطارق في رؤوسنا توقظ فيها شلال الأمل، وكل يغترف منه بقدر .. والأمل في هذه المواقف يتدفق كنهر يفيض أحياناً، ويهبط مستواه إلى حد الجفاف أحياناً، وينهمر كشلال هادر في أقل الأحوال وكل يغترف بقدر.

فجأة عاد وقع أقدام هذا المسئول العملاق على ضآلة حاله .. وكلنا يتبعه بنظراته دون كلمة واحدة، إلاَّ سيدة من شبه القارة الهنديه حركتها المشاعر الفياضة للشرق والشرقيين، فسألته:

– ماذا حدث؟ فلم يلتفت إليها، فقط همهم بصوت سمعناه ولم نع منه إلا كلمة المرور فلم نفهم شيئاً.. وإن بدت على السيدة مظاهرالقلق، وقامت من مكانها، لتطرح علينا السؤال نفسه، وهي تعلم أننا لا نعرف جوابه، فلم يرد عليها أحد .. إلا أنا بمشاعر الشرق أجبت السؤال بسؤال:

– وماذا يحدث عادة في مثل هذه الأحوال؟

طال الإنتظار حتي بدأ إثنان من كبار السن الغربيين تصيبهم

عدوى القلق الشرقي .. ويقلقون على البقية الباقية لهم من العمر.. وعلى قصرها كان قلقهم شديد .. إذ لمعت الأعين خلف النظارات .. واضطربت الأعصاب المرخية في الأيادي وخلجات الوجه وعروقه المرتعشة تحت العيون وفوق الوجنات والشفاه، التي بدأت تهمهم مرتعشة بكلمات لم أعها تماماً.

بدأ الجميع يتلاحمون في نقاش، وينظرون إلى الأبواب المفتوحة بين العربات عسى أن يعوا شيئاً مما يحدث، وفكرت أن أُخرج أوراقي وقلمي، لأُسجِّل مايدور على الطبيعة، ومن وحي اللحظة، وفتحت حقيبتي فوجدت بها تفاحة، فأخرجتها وبدأت أقضمها وسط نظرات الإستغراب والإستنكار من الجميع، وهل الحالة التي نحن عليها تتحمل أن يأكل إنسان؟! أو تكون شهيته لم تهرب منه إلى الأبد .. لكنني عقلتها وتوكلت .. لابد وأن مثل هذه الأمور تحدث كثيراً، ولابد أن هناك حلولاً جاهزة لها .. ولعل ثقتي في تنظيم هذا البلد ودقته كانت دافعاً آخر لهدوء أعصابي، ذلك كان القدرْ الذي إغترفته من نهر الأمل المتدفق بداخل كل منا .. فقد كان وفيراً، ودعم هدوئي أكثر، شعور آخر بأنه إن لم يكن هناك حل .. فهناك الراحة من كل المشاكل والآلام في لحظة واحدة لن أستطيع فيها تبين الراحة من الألم .. ولن أدري بشيء .. ولعل جهلي بأبعاد الموقف واحتمالاته قد شحذ أكثر كل مرابض الهدوء الكامنة في نفسي .. الثقة .. والجهل ... والأمل .. والرغبة في

الراحة، كلها تجمعت وخلقت لي موقفاً مختلفاً عن الآخرين، إستنكروه ولم يعطونني أي عذر .. رغم أني مثلاً قدرت قلق المرأة الهندية، وخطر ببالي حينما نظرت لهلعها البادي في عينيها أنها بالضرورة أم، وهي قلقة على حياتها من أجل أطفالها وليس لذاتها، وفجأة ظهر السائق مرة أخرى بخطواته الناقوسية، وسط هذا الصمت المُطبِق تحت الأرض وكأننا في لحد واحد جدرانه صماء نسمع فيه أصداء أنفاسنا.

كدت أبتسم كعادة الشرقيين في الملمات - فشر البليّة ما يضحك - كدت أيضاً أتفكّه مع السائق، إذ ذكّرتني خطواته القلقة جيئة وذهاباً بأب يقطع الممر رواحاً وغدواً إنتظاراً لنبأ مولوده.

كدت أقولها بصوت مرتفع: "عل المولود غلاماً؟!" .. كتمت إبتسامتي أمام الوجوه القلقة، وكنت قد إنتهيت من قضم التفاحة،: وتركتها كهيكل عظمي لا أعرف أين أُواريه عن الأعين ، وبهدوء شديد وحفاظاً على النظافة لففته في ورقة، وإحتفظت به في يدي.. لم أُلقه أرضاً رغم أننا جميعاً في باطن الأرض، فلابد أن نتصرف كمتحضرين حتي الرمق الأخير!!

صورتي كعربية وسط هذا التجمع التساعي المختلف الجنسيات حتمت عليّ ذلك .. صاحت السيدة الهندية مرة أخري:

- الأبواب لا يمكن أن تفتح!!

فجأة قُبِّضت الإضاءة .. مما زاد الأعصاب توتراً .. وبدأت العيون تحملق في الظلام، لنتبين بعضنا البعض في بصيص النور المنبعث من بين العربات ، وعاد السائق مرة أخري لنبادره جميعاً بالسؤال .. ماذا حدث؟

أخيراً خرج من هدؤه الإنجليزي التقليدي وقال:

– هناك جثة على القضبان.

إتجه مسرعاً إلى مقدمة القطار مرة أخرى، ومرت دقائق طويلة عقدنا خلالها قمة تساعية، إشترك فيها الجميع حول الجثة، وسألتهم هل حاول قتل نفس؟ فتبسم أحد العجائز أخيراً وقال:

– لما لا تقولي أحد قتله وألقى به على القضبان.

طال النقاش حول أساليب خروجنا، والحل فأكدت الهندية بيأس: "لا يمكن فتح الأبواب".

رددنا كلنا سؤالاً واحداً: هل أبلغوا القطارات الأخرى، حتى لا يصطدم بنا أحدها؟ وبدأ نهر الأمل الذي أسنت مياهه لدقائق – كأنها دهور ـ بدأ يتحرك مرة أخرى، وبدأنا نفكر كيف سنخرج من هذا المأزق، بل تجاوزنا ذلك إلى حتمية الخروج، لنبدأ في التفكير في متى نخرج؟ المسألة إذن لم تعد كيف؟! فكأننا أيقنا أننا ناجون لاشك في ذلك ، ولكن المشكلة متى نخرج؟

طال الإنتظار .. حتي بدت اللحظات وكأنها دهور من القلق ..

وبدأ الجميع يتخلون عن وقارهم .. وبدا الإضطراب واضحاً في خلجات الصوت وفي حركات الأيدي .. وزاغت النظرات .. وعلا الوجوه رعب واضح ليس خوفاً من المجهول .. ولكنه إنتظار المحتوم – وما أقسى إنتظار القدر خاصة إذا ما عرفناه – وقُدِّر لنا أن نجابهه وجهاً لوجه ونحن نعرف تفاصيله .. فلابد أن قطارات أخري ستأتي مسرعة، تخترق صمت وظلام النفق الطويل الممتد تحت الأرض دون إشارة ضوء توقفها .. وحتى لو نُبِّهت القطارات المندفعة في النفق كصاروخ .. فلن تستطيع الوقوف بشكل مفاجيء ، وستكون كارثة إرتطام الحديد بالحديد .. إنسحاق أجسادنا بينها .. لا محالة هذا هو قدرنا المنتظر.

تداعت إلى خاطري بعد أن بدأت أتخلى عن هدوئي السابق، وأشارك الجميع مشاعرهم .. تداعت إلى خاطري محاولة إنتحار فاشلة قمت بها وأنا في التاسعة عشرة من عمري .. تجرعت فيها كمية كبيرة من أقراص المسكن .. بل أخذت أشرب كل قرص بكمية كبيرة من الماء .. مما خفف المحلول القاتل في داخلي .. فلم يأت الموت سريعاً، وجلست أنتظره .. وأسترجع شريط حياتي القصيرة التافهة، فبدا لي سبب إنتحاري واهياً لا مبرر له .. لكنني أنتظر الموت ... وطال الإنتظار .. ولم يأت فجأة .. كما لم تبد لي مظاهره، التي لم أكن أعرف عنها شيئاً إلا من خلال الأفلام الرومانسية .. وبدأ الخوف ينتابني .. وبدأت مظاهر

الخوف، لا مظاهر الموت تجتاح جسدي النحيل .. إرتعشت يداي .. وجف حلقي ... وزاغت عيناي .. وانتابني هبوط شديد .. واستسلام لم أعد أستطيع معه الحركة، من هول ما أشعر به ويضطرم داخلي من مشاعر خوف ، ورهبة ، وندم كلها معاً تشكل شلالاً هادراً لا أستطيع إقافه .. وأصبحت مشاعري موت من الخوف .. أكثر منها خوف من الموت.

سرحت، وغصت بداخلي ، فطفت على سطح مخيلتي رؤى إنتظار الموت الذي يأتي ولا يأتي .. وفجأة إندفع القطار مضيئاً أنواره .. ناهباً قضبانه بسرعة جنونية؛ ليقف في أول محطة .. ويلفظنا على الرصيف .. الكل يجري ويتدافع هرباً من الموت أو من مجرد فكرة الموت .. وقسوة إنتظارها وترقبها.

كدنا ندوس بعضنا البعض من تدافعنا .. وعرفت أننا لم نكن تسعة بل أكثر من ذلك بكثير جمعنا شعور واحد لدقائق .. شعور الموت المرتقب .. ثم فرقتنا الحياة كل في درب .. فخرجنا الى النور كل في طريقه يعدو مسرعاً .. صاعداً إلى أعلى سطح الأرض هرباً من قطار كان سيقلنا إلى الأعلى .. إلى السماء.



ألا تلفظ هذه المدينة شيئاً لأحد؟!
كيف يقتات سكانها بكل شيء حتى
الثمالة، فلا يتركون لغيرهم ولو الفتات،
يستهلكون كل شيء عن آخره ولا
يشعرون بأن هناك من يبحث حتى عن
البقايا والنفاية فلا يجدها.

النبوءة



هَبطتُ درجات السلم سقوطاً ، لم أستقل المصعد، وتركت دموعي تنزل معى إلى قرار سحيق في داخلى فلم يرهها أحد إلى أن خرجت إلى الشارع الفسيح المذدحم، وضعتُ بين أناسه على إختلافهم . . فتركت لها العنان لتنفلت كشلال من غمام . . جعلني لا أرى ما أمامي إلا كطيوف مهزوزة، أو كمسوخ يُرثى لها . . ولم تتوقف خطواتي سيراً . . بل عدواً، وجريًا . . هربًا من ان تصْدُق النبوءة .

قطعت شوارعًا، وعبرت طرقاً وميادينا، لا أدري كيف عرفت طريقي إليها، رغم ذهني الشارد، و عَيْناى اللتان لا تكادا أن تريا ما حولهما، وسط فيض الدموع المنهمرة كالمطر على وجهي، وكالشلال داخل قلبي الصغير، الذي ما عاد يحتمل رؤية الأبواب الموصدة، وهي تُصفق في وجهي الكالح، واحداً تلو الأخر، دون رحمة أو شفقة . . ودون أن يدرك موصدوها هول مايفعلون، وهم يصمّون أذانهم عن صوت إرتطام الأمل على أرض الواقع . . وإنسحاقي تحت ركام هذه الأمال المُهدرة

- الذي يصل صريره إلى أُذنيّ من الداخل . . وكأنه صوت رحى لطاحونة خَربه تجرش عظم مقدد يعرقل دوران تروسها الصدئة . . التي أراها أحياناً كأنياب قرش حادة، تنهش دون هوادة، وبتلذذ غير واع ؛ لتصحن طعامها وتحوله إلى لقمة سائغة .

سرت كثيراً حتى كاد الليل يجسم على صدري بثقله المظلم الكئيب، فيحيلني إلى قطة سوداء جَربة تموء فى ظلام الطرقات الموحشة تبحث عن طعامها دون طائل بين أكوام عالية من القمامة . . فلا تجد إلا أوراق . . فيعلوا موائها الموجع عجباً !!

- ألا تلفظ هذه المدينة شيئاً لأحد ؟ ! كيف يقتات سكانها بكل شيء حتى الثُمالة، فلا يتركون لغيرهم ولو الفتات، يستهلكون كل شيء عن أخره .. ولا يشعرون بأن هناك من يبحث حتى عن البقايا والنفاية فلا يجدها .

قرقعت أكوام الورق تحت قدميّ، و أنا أسير، و كأني أعرف طريقي، حتى وجدتني أقف لأستظل تحت السقف الضيق لمحطة الحافلات، أحتمي به من قطرات مطر كبيرة متباعدة، بدأت تدق رأسي الملتهب، و أسمع من داخلي صوت إطفاء سطح ساخن بقطرات الماء .

جلست على مقعد على المحطة . . تلفح وجهي نسمات باردة كالصقيع .، تُطيِّر الرزاز على وجهي المبتل بدموعي،

فأمسحهما معاً بظهر يدي؛ لأرى سواد إكتحال عينيّ و كأنه قد ذوّب معه سوادهما الحالك، فغسل وجهي و قلبي معاً .

كأنه كان لابد من هذه اللحظة لأرى جيداً كيف تسير الأمور من حولي، ماذا أفعل لأحصل على عمل في هذا البلد المكتظ لدرجة التخمة؟!

سنوات تمر وأنا ألهث وراء سراب.. وأمل يتوهج ثم يخبو ..يتوهج ثم يخبو.. يتوهج ثم يخبو.. وأنا أتتبع ضوءه الخافت، حتى لا يضيع مني الطريق إليه.. وحتى لا أفقد الذُبالة المتبقية منه، ألعن الأيام تارة.. وأبتسم لها تارة.. أرفض الإستسلام لليأس.. ويومًا بعد يوم أستسلم للخرافة.. أستخير الرموز المحيطة بي في كل طريق.. وحتى في النوم: الخُضرة خير.. والحمرة شر.. رأيت صباح اليوم يمامة، وفي المرة السابقة نعق الغراب في صباحي من فوق قمة عالية، ثم رف بجناحيه السوّد.. وسقط ظله على وجهي.. فتحت الورق، فظل الشايب يلاحقنى و يسقط فى يدى، حتى تجمع الشُيُاب الأربعة و كانوا من نصيبى.. بينما الأولاد، و البنات، و كل الأعداد، و الأبناط، تدير لى ظهرها .

لجأت إلى العرافات، و ضاربات الودع، و قارئى الطالع، والبخت، وحتى الفنجان الذى كان يُظهر فى كل مرة خطاب، أو ورقة كبيرةستصل قريباً.. و طريق محاط بالشموع.. و طيور

ترفرف، وسمك - و السمك رزق وفير - و بقية من سائل، أقرب إلى الدموع الحائرة فى قاع الفنجان.. و تقول العرفة : إنه رزق جارى.. ولا أستطيع أن أقبض عليه!!!

ووراء كل باب أدقه كلام كثير، ملخصه الرفض، أفتش فيه عن السبب، وراء هذا الحظ العثر!!

- إتقني لغة أجنبية.

فأُذوِّب ناظريَّ بين الكتب و القواميس.

- تعلمى الطباعة بسرعة.

و تكد أناملى على أزرار الماكينة؛ لتصل إلى عدد الكلمات المطلوبة فى وقت حاسم.

- طوري نفسك .. فالعلم يتقدم، و الكمبيوتر لغة العصر، و أنت دراستك نظرية.

وأبحث عن كل جديد لأُتقنه.. و أتفوق فيه.. و أقطع الطريق إلى أخره.. لأجد الحظ العثر يصفق الباب فى وجهي مقهقهاً..

إستعدت الشريط من أوله.. تطن في رأسي كل النصائح التي عملت بها، و لم تُجدي.. و إستعرضت ماقيل لي اليوم بالذات، و أنا في جلستي هذه، وحيدة في إنتظار الذي يأتى و لا يأتى.

- إنت ممتازة، كل الإختبارات تؤكد ذلك.

لم يأت بجديد، فثقتى فى ذاتى غير محدودة!!

– كل من أشرفوا على تدريبك يؤكدون أنك أفضل من تقدمت لشغل الوظيفة.

و أُتمتم: في كل مرة كنت أفضلهن!!!

– الجميع يشكر في دأبك على العمل.. لكنهم يقولون شيئاً غريباً:

"دى بتاعة شغل .. و شغل و بس!!!"

رفعت حاجبيَّ دهشة، وحملقت عيناى الصغيرتان، وإستدارتا على ضيقهما.. وأكملَ الرجل تعبيره الرافض المهذب، مصحوباً بإبتسامة ذات مغزى، و إقتضب النتيجة في لكنة إنجليزية موجزة في كلمتين، و هو يمد لي يده واقفاً، ومصافحاً؛ إيذاناً بإنتهاء المقابلة.

– معلهش هرد لك (hard luck) .

رددتها في نفسي مراراً، مع كل إحباط أصبت به: إنه بالفعل حظ عثر سيء.. لكني لم أستشعرها بهذا التلخيص المُعجز إلاَّ اليوم، ولم أعيها جيداً إلاَّ مع إغتسال وجهي، وقلبي، وعينيَّ، ووضوح الرؤية أمامي.

أقبلَتْ حافلة مزدحمة، و قفز إليها كل من إستطاع.. إلا أنا! وأخرى لم أستطع اللحاق بها، وثالثة زاحمت، وقاتلت بإستماتة كي أستقلها، فلم أستطع، وكادت الأقدام تدوسني!! ومع قدوم الرابعة كان الليل قد خيَّم تماماً.. وبدأ الأمل يدب في نفسي

مرة أخرى، في أن أجد لي موضع قدم، حتى على سلمها؛ نظراً لقلة عدد المنتظرين التعساء مثلي، في هذا الجو المطير، الذي حوّل الشارع من حولنا إلى بحيرة من ماء أسن.

مرت حافلات مزدحمة كثيرة ولم تقف.. بل أسرعت ترشنا عجلاتها بالماء المتجمع في كنف الرصيف.. وتذكرت النبوءة التي قالها لي جارنا العجوز.. الذي إستشرته هذه المرة، فإستشرف بنظرته الثاقبة عبر سنوات عمره الطويل.. وقال لي أنه إستخار لي، ونام، وحلم.. ولكن ليس لي عيش هذه المرة أيضاً!!

– تباً لهذا العجوز الخَرِف!!! كيف لا يكون لي عيش.. وأنا أفضلهن، والجميع يشهد لي؟؟ !!

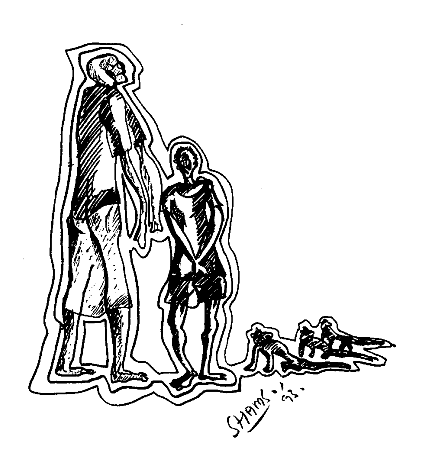
وأقبلت حافلة أخرى ترفع أنوارها العالية؛ لتعمى عينيّ، وتجرف عجلاتها ماء المطر، وتنثره على الغافلين من أمثالى – المنتظرين مثلي – على أمل لا يأتي، و تنطلق فلا تحمل أحد منا.

إذن صدقت النبوءة !! .. لكني لن أستسلم هذه المرة.. من قال أني:

" بتاعة شغل و بس ؟؟!!"

نظرت إلى الساعة، فوجدتها قاربت على منتصف الليل.. إذن هذه قد تكون أخر الحافلات، إنطلقتُ بسرعة خاطفة

مجنونة، لا تُخلِ مكاناً للتردد، تاركة محطة الإنتظار الطويل.. عابرة إلى الجانب الآخر من الطريق؛ لأقف تحت فانوس النور؛ أنفض الماء عن ثوبي الأبيض، وما كدت أفعل حتى أقبلت سيارة سوداء فارهة، مندفعة بسرعة طائشة.. لكن قائدها توقف فجأة وسط هذا الزلق مُحدثاً صوتاً رهيباً، فلطخ الطين ثوبي وساقاي.. لكني ركبت أخيراً، وجلست ممددة في مقعد وثير، وسرى الدفيء أخيراً في أطرافي، وأوصالي المتجمده، وسارت السيارة فى الطريق المعاكس، وأوقفت تحقق النبوءة.



قلبي هذه الليلة يرفض الموت، يتمرد على الجفاف، يمزق الظلام والسواد، ويبعث في نفسي شذى جديداً .. لكنه مازال حبيس جدران صدري لا يقوى على تركها إلى لساني؛ كي يفصح عن رغبته.

إجترار الذكرى


SHAMS

خــواء من حولى وفراغ.. أضمه بجفنيَّ .. أستوعبه وأغمض عليه أجفاني، وأضغط بأصبعي على عينيَّ فأرى صوراً غريبة وألواناً وزخارفاً لا يقوى على رسمها فنان .. أرى داخلى بكل مافيه.

وماهى إلا لحظات حتى أفيق .. ماذا أفعل ؟؟ هذه الحركة كنت أكررها صبية وحدى وأحلم بالغد، فماذا يحدو بى إلى تكرارها .. الآن ولا غد لي؟!

ألفظ أنفاس سيجارتي وأرى فيها نفس الصور، أشكّل منها عالماً خيالياً هو نفس العالم الذي طالما رأيته..

مشاعري إذن لم تتغير .. طفولتي مازالت حبيسة بداخلي، تلهو في عالم ضيق، وتحول هالتي البيضاء دون انطلاقها.

أنا لا أشعر بكبر سني ، ولا أراه إلا في عيون الآخرين، ولا أصدقه في المرآه..

الغرفة من حولي فراغ .. والبرد يزداد .. ألملم دثاري من حولي، وأطوي الغطاء تحت قدميَّ ؛ علني أستشعر الدفء ..

أنادي خادمي الصغير ليوقد المدفأة ، فينفذ ما أمرته وينصرف.

ينصرف عني إلى لُعبة .. يتملل من مطالبي أحياناً، ويتمنى بينه وبين نفسه بيت به أطفال كي يلعب معهم .. لو يدرى حقيقة الأمر أني أريد أن أشاركه لَعبة بعلب السجائر الفارغة، كي نصنع حقائباً نكسوها بالورق المفضض، ونصنع ميزاناً بعلب طلاء الأحذية .. أجمع معه أغطية زجاجات المياه الغازية وبذور المشمش.

إنه لا يدري أني أجيد صنع أشياء كثيرة من أي شيء، ومن لا شئ أحياناً ، تماماً كما صنعت جيلاً .. أبناء وبنات لكل منهم الآن أبناء وبنات .. وبعد أن كانوا يملأون عليَّ الدار تركوه خُواء .. وتركوني .. للاشيء .. لماذا تركوني ؟؟ لا أدري !!

أمد يدى تحت الوسادة .. أسحب حزمة من المفاتيح، تماماً كالتى كانت تربطها جدتى حول خصرها.

الآن ودون أن أدري صرت جده .. دون وعي مني لمرور الأيام وتعاقبها.

أناديه مرة أخرى وأحدد له مفتاح بعينه، فيفتح دولاب الملابس ويُخرِج الصندوق دون أن أطلبه منه .. فقد تعود وتعلم أن هذه حياتي وشغلي الشاغل لملء فراغي .. أخرج الصندوق من بين مجموعة ملابسي التي لافرق بينها ، فكلها ظلام دامس وسواد رطب بارد .. لا جديد فيها برغم أني لم أرتد أكثرها سوى مرة أو

مرتين.. حتى أنا لم أعد أفكر حين أختار إحداها فكل أرديتي سواد .. لماذا ؟؟ ربما وقار .. وربما حزن .. ولكن على من الحزن .. على زوجي ، من غير المعقول فقد مر على وفاته أكثر من ربع قرن .. أمازلت ألبس السواد عليه ومن أجله ؟؟ لا .. لابد وأني إتشحت بالسواد أخر مرة على أخي .. وحتى هذا مات منذ أكثر من ثلاثة عشر سنة !! أعليه ألبس السواد ؟؟ السبب لا يهم الآن .. المهم أني إتشحت بالسواد نصف عمري .. دون أن أعي لذلك سبباً !! ولكن ماذا يجعلني أتساءل الآن ؟؟ المهم هو الصندوق.

تناولته بكلتا يدى، وتناول الصبى الصغير صندوق السجائر الفارغ؛ ليتسلى به كما أتسلى أنا بصندوقي .. وفتحته بعناية فقفزت قطتي إلى جواري عشماً منها أن به شيئاً يؤكل، وتمسحت بي وما أن تشممت ما به حتى عادت أدراجها نحو المدفأة وتركتني مع سكانه .. وأغمضت عينيها للدفء، وتكوَّر جسدها المخملي الأسود ورأيت لأول مرة سوادها الحالك .. لماذا إخترت قطة سوداء؟! لكني تذكرت أني لم أخترها ، تماماً مثلما لم أختر أرديتي السوداء، هي التي إختارتني يوم دقت بأظافرها بابي في ليلة عاصفة، وملأت السلم بموائها الحالك كلونها .. تماماً كما دق الموت باب داري في ليلة عاصفة، وتركنى كتلة سواد موائها أسود مما ترتدي.

رحت أكرر نفسي مع محتويات الصندوق .. وقُوفي مع إحداها

متأملة متعمقة .. مروري على أخرى مر الكرام، وتذكُر مواقف هي نفسها ماتذكرته بالأمس، وأمس الأول، وكل يوم مضى .. ومنذ أربع أعوام، بعدما أُقيم آخر عرس في داري، وودعت آخر بناتي، وذهبت إلى دفء دارها الجديد، وخلّفت وراءها فراغاً ورطوبة سقيمة تنبعث من كل أركان الدار.

أنا لا أنتظر أحد ظهراً على الغذاء، ولا أوقظ أحد صباحاً، ولا أعد الفطور لأحد .. ولا أحد يشاركني قهوة المغرب .. ولايوجد من يؤنس وحشة المساء سوى صندوق الذكريات.

ملّتني رسائله وصوره، التي قرأتها وتأملتها مئات بل آلاف المرات .. وتكررت نظرتي وتكرر معها تداعي الأفكار والذكريات .. أجلس إلى هذا الصندوق كل مساء تقريباً .. بليت محتوياته من كثرة التأمل .. تآكلت من نظراتي ، وذابت أطرافها من لمساتي برغم حُنوي عليها.

نفس الذكريات تتداعى إلى مخيلتي، مع كل صورة أتذكر موقفاً هو نفسه الذي تذكرته خلال الليالي الماضية، وهو الذي يتداعى إلى ذهني الآن، وسيتكرر كلما كررت تأملي لهذه الأشياء.

لا أنكر أني مللتها كما ملّتني .. لم تعد تبعث في نفسي الدفء الذي بعثته فيّ حينما كانت حقيقة .. أصبح الإجترار باعثاً للجوع أكثر وليس تعويضاً عنه .. أصبحت ذكرياتي باردة كجدران داري

وجدران قلبي الخاوي ، الذي بدأ ينبض أخيراً ويتمرد على التابوت المسجّى به .. بدأ يحن إلى حياة حقيقية .. بدأ يرفض الإجترار وتداعي الذكريات الباهتة .. بدأ يُطالب بما سيُنكره عليه الناس جميعاً .. خلع الرداء الأسود منذ أعوام .. عامين بالتحديد، منذ عامين أحاول جاهدة أن أعيد إليه أرديته السوداء كي لا يتسرب إليه جديد .. كي يظل مخلصاً لتابوته ولكن عبثاً بدأ التابوت يطالب بالأحياء .. رفض أن يكون حظه دائماً موتى .. وماذا عساي أن أفعل حيال تمرده؟؟.

مللت إجترار الذكرى وأغلقت صندوق الصور ، صور الماضي لأنه لن يعود .. برغم بعثي له كل مساء ، لن يعود كما كان بنفس الدفء والحرارة ، فكل شيء هنا بارد .. الجدران والفراش وأعماقي هي أيضاً باردة بكل ما يعتمل بها، باردة كزجاج النافذة المطلة على الحديقة، تلامسها الأغصان من بعيد لبعيد بظلالها فقط، يبللها الندى كل صباح دونما صوت؛ لتأتي خيوط الشمس فتبخره بعنف .. يضيئه البرق، وإن كانت ومضاته خاطفة، تهزه الرعود هزاً عنيفاً .. تردد الجدران صداها.

هكذا قلبي هذه الليلة يرفض الموت، ويتمرد على الجفاف، ويمزق الظلام والسواد، ويبعث في نفسي شذى جديد .. لكنه مازال حبيس جدران صدري لا يقوى على تركها إلى لساني كي يُفصِح عن رغبته.

وماذا عساي أقول لأولادي ولأولادهم؟؟ سيقول الصغار: «جدتنا أحبت» وسيكرر الكبار: «إنها الشيخوخة وتهيؤاتها، لقد صارت أمنا عجوز خَرِفه».. وعبثاً أجمع شجاعتي كي أواجه من حولي .. أولم أتم رسالتي ، سهرت وتعبت حرمت هذا القلب حياته على مدى ربع قرن ومكافآتهم لي وله التخبط الآن بين جدران أربعة.

ماذا لو أتى الصباح فرأني بثوب جديد .. ليس زاهياً .. لكنه غير قاتم على أي حال؟ ماذا لو إعترفت برغبتي الكامنة في الدفء وبكل معناه .. حتى لو كان دفئاً مقروناً بسعال كالذي يتسرب لأذانيَّ ولقلبي كل مساء من الطابق العلوي؟؟ ولماذا اسمعه من خلال جدار سميك . أريد أن أسمعه بين جدراني الأربع .. لاشك سيدفيء المكان ويوقظ فيه الحياة ولو في خريفها ، لكنها حياة على أي حال.

لو إجتاحتني هذه النوبة من الشجاعة غداً أو بعد غد، ومع إنتهاء المطر وبداية يوم واضح الضياء صريحة شمسه دافئة..

سأواجه الناس .. كل الناس برغبة حقيقية في الحياة والدفء.. لقد فتت البرد ضلوعي وحناها على لا شئ .. وبرغم البرد راح القلب يفرد جناحيه ويُلَيِّن أحدوداب أضلعي على الخواء.

- ولكن ماذا عساهم يقولون؟؟

- فليقولوا ما يقولون .. وماذا عساي أن أفعل؟ وكيف أواجه

أحفادي وأولادي؟؟.. ولكن ما شأنهم فكل في حياته، ولا أحد يشاركني هذه الحياة الرطبة السقيمة.. أوَ ينكرون عليَّ أن أحيا؟! أوَ يشعر أحد بعد أن يغلق داره على دفئها ببرد داري الخاوية حتى من السعال الخشن؟! ماذا لو تركونى أجمع بقاياى على بقايا السعال الخشن المتسرب من الدور العلوي ؟! سيملأ السعال مسائي، لكنى سأنتظر ظهراً نحنحة قوية، وسأبث مشاعري وأفكارى من يجاوبنى إياها .. لن أنتظر كل أسبوع زيارة أبنائي وأحفادي، كي أعيش النهار وأموت كل مساء جمعة، وحتى الجمعة القادمة حينما يعاودونني .. ستمتلأ أيامي ولو بسعال تردده الجدران، بدلاً من أن تردد رنين الصمت الدامس..

غداً تمتلأ أيامى .. غداً أواجه الجميع بثوب جديد غير مظلم ، وإن كان باهتاً يتوارى لونه خلف شحوب يدعي الوقار والخجل.

فيما أفكر؟؟ حتى هذه الفكرة الشجاعة والمواجهة كرَرَت نفسها معي على مر عامين وربما أكثر، حتى سَئِمت من تخاذلي مع كل صباح .. خاصة صباح الجمعة .. كل صَباح أؤكد لجار وحدتي أني سأُحدِّث أبنائى صباح الجمعة القادمة ، ويتقاعس لساني أمام نظرات الإحترام والإجلال في أعينهم ، وأمام كلمات: "أنتِ أعظم أُم ، وأخلص زوجة ، أنت تستحقين تمثالاً من ذهب" والحقيقة أني صرت تمثالاً من رماد .. داخله فراغ .. تجلله هالة من بياض يكتمها اللون الأسود على رأسي وفي أرديتي ..

سأرتدي غداً ملابس ملونة،

غدا سأقول كل مافي داخلى وأمام الجميع..

ولم يمهلني دق الباب حتى الغد .. وجدته أمامي إبني الأكبر، جاء على غير موعد .. فلأنتهزها فرصة لأحدثه على إنفراد.

هو أيضا لم يمهلني فقد جاء يبشرني ويدعوني غداً إلى عرس إبنته الكبرى .. فجأة وبلا مقدمات تهاوت الكلمات على لساني، فردّدت أمامه: "ألف مبروك".

إبتلعت لساني وخرج الدفء من داري مرة أخرى لأنفث دخان سيجارتي وأرى فيها عرس الحفيدة، وأفراح الغد، وبعد الغد إذا إحتملت برودة الدار إلى مابعد الغد.

لم تعد لي الجرأة السابقة على تجسيد مشاهد خيالي .. فقط أغمض عينيَّ مستسلمة لشطحات الخيال .. جامدة كتمثال يحملق في سقف الحجرة، والخيال سابح في رحاب واسعة يأتي بالبعيد، ويعيد الماضي والليالي الناعمة .. لكنني مراهقة عجوز.

الفراء لا يدفئ القلب



تَكاسلتُ في القيام من الفراش، فاليوم واحد من أيام الخريف التي تبدأ معها بشائر لسعة برد الشتاء .. نقلة جديدة لها جمالها، فلولا دورة الأيام ماكان بالإمكان الإستمرار في هذه الحياة.

بشائر الصيف تذكرني بانتهاء الإمتحانات، وبداية موسم اللعب والفراغ .. رغم أنني تركت الدراسة منذ سنين .. إلا أن بشائر الصيف مازالت تحمل إليَّ شعوراً بالفراغ من واجب ثقيل، وبشائر الشتاء تحمل لي الشعور ببداية الدراسة ، وحمل هموم الواجبات.

دخلت الدائرة رغماً عني .. مع إبنتي .. لكنني اليوم تكاسلت في القيام مستمتعة بدفء الفراش الوثير .. مستسلمة لأحلام قرب اللقاء..

لا أصدق أنني عدت مراهقة مرة أخرى، لي أحلام يقظة أُنفِّس فيها عن رغبات مكبوتة .. لكنني فقط أفكر، لم تعد لي الجرأة السابقة على تجسيد مشاهد خيالي .. فقط أغمض عينيَّ

مستسلمة لشطحات الخيال .. جامدة كتمثال يحملق في سقف الحجرة، والخيال سابح في رحاب واسعة يأتي بالبعيد ، ويعيد الماضي والليالي الناعمة .. لكنني مراهقة عجوز.

يسوقني الخيال إلى مقارنة ظالمة .. كم تساوي إغفاءة، فوق ذراع حانية؟! كم تساوي ربتة على كتف أو خد؟! كم تساوي قبلة صباح خير ندي، ومداعبة شقية؟! كم يساوي كوب شاي دافيء في صباح كهذا نتقاسمه، تتفتح عيوننا على شيء واحد، ونقول كل مافي صدورنا من أفكار .. ونطلق تفكيراً مسموعاً مشترك .. كم يساوي تناول الإفطار معاً؟! إعداده، وجمعه، وتنظيف مخلفاته مشاركة .. كم يساوي خروجنا للعمل معاً بعد توديع صغيرتنا حينما تحملها حافلة كبيرة في دورة طويلة تنثرها وزهرات مثلها على بوابة مدرسة.

كم تساوي نظرات الجارات الدَهشة على سعادة بادية في إبتسامة أو ضحكة أو لمسة يد؟؟ أو حركَة ذوق مفرط لا تتوافر بين الكثير من الأزواج .. هل ما سيعود به من مال يُعوِّض هذه اللحظات الغنية بالنعمة .. المفعمة بسلام وأمان وسعادة.

ورحت أقدر كم تُكلِّف لحظات الشوق والإنتظار؟ وكم تُكلِّف دموع ساخنة حيال خاطر مجنون يستدعي فكرة الفراق الأبدي .. وكم تكلِّف رجفة وقشعريرة تهز الكيان لسماع أغاني الغربة والإغتراب، والشوق واللهفة وما أكثرها !! ومشاهد الحب ولمساته

ونظراته على شاشة صغيرة تبعث الوجد في النفس.

كم تكلف جفوة النوم .. وتقطعه كعجوز هدتها الأيام وأطارت نومها؟؟ وقلق لا مبرر له .. لا يُقاس بنوم عميق في حضن دافيء لا أشعر فيه بما يصدر من أصوات، ولو قرعت طبول .. كم يُكلِّف بكاء مُر وحُرقة تُدمي جفوني .. على أيام متشابهة متكاسلة .. لا معني لها ولا قيمة، ولا تحمل جديداً.

كم تُكلِّف من العمر والنضارة والشباب هموم تُثقل الكاهل .. ومسئوليات ثقيلة علي تفاهتها .. مسئوليات يومية لا مهرب منها .. ولارغبة فيها .. لكنها قهر يومي يُمارسه الجميع، ولابد أن أسير مثلهم في القطيع.

كم تُكلِّف الجسد الهزيل رغبة متمنعة عن الطعام؟ وشهوة مقطوعة في كل ما يُلتهم؟! .. والتقاط فتات لسد الرمق ، ومواجهة صداع قاتل، أو هبوط سحيق .. وشحوب وجه في المرآه يُروِّع صاحبه أكثر مما يُروِّع الآخرين.

وما قيمة هذا الجسد المتداعي إذا لم تمسه يد الحياة .. تقصفت الأظافر، وطارت قشوراً، وجفت الأصابع وأعرورقت الأيدي التي تتوق لإعتصار يد أقوي وأحن .

الغضون بدأت تزحف تحت العيون المسهدة، والجفاف أصاب الشعر والبشرة، وبدأت كتل دهون الراحة والإستقرار تذوب ، حتى برزت بعض العظام التي كانت مكتسية بالأنوثة ، وما قيمة

محاولات الإصلاح والترميم؟! ماقيمة محاولات رسم الصحة والسعادة والسرور بالألوان على وجه باهت مصفر ؟! وما جدوي رداء جديد؟ أو سريان مشط في مفرق؟ وما قيمة نظرات الإعجاب وعبارات المديح من أفواه محرمة ، وألسنة غريبة وعيون وقحه .. لا صدق فيها؟؟

وبين كم يساوي وكم يُكلِّف وماقيمة ؟؟ رحت في متاهة تقويم أمور لا تُقوَّم بمال الدنيا .. وعدت إلى رومانسية المراهقة وأنا في العقد الرابع، يزج بيَّ العقل، ويجذبني القلب، لا أستطيع ممارسة مراهقتي كما كنت أمارسها في الربيع، مع بشائر صيف حار مُبشِّر بأيام لهو وفراغ للنفس .. ولا كما كنت أستشعرها في لحظات دفء غارب، مع بشائر شتاء مفعم بالإنشغال والتشاغل عن مطالب الأعماق .

ويوقظني رنين هاتف يُشعرني أني لست وحدي، صديقة لها نفس الظروف – وما أكثرهن في حياتنا الآن – زوجات وحيدات إخترن أو أُجبرن على الوحدة من أجل حفنة جنيهات تحقق الدفء في الحياة، بالدفاية، والبوتاجاز، والسخان، والستائر، والسجاد، وكومة من الثياب الفاخرة والمتميزة عما يُصنع محلياً .. من أجل مظاهر التميّز ندفع أعواماً من العمر، نبدأها وكأنها جهاد من أجل مستقبل أكثر دفئاً .. وندفع ثمنها أياماً جافة مجدبة كأنها شجرة جرداء تلفحها عواصف خريفية، تُسقِط عنها كل ما

يكسوها ، وتتركها واقفة عارية في مهب العاصفة والأنواء.

ونتشاكي .. ولا مناص من أن نُمارس الطب النفسي، أو التحليل النفسي كل منًا حيال الأخرى .. ولا حل، فلا يوجد من يفهمنا أكثر منا .. وكل منًا تتحايل علي مشاعرها، فتدفنها بين أقراص المهدئ والمنوم، أو بين الشكوي الدائمة الملة، والبكاء الذي يجعل الناس يهربون من صاحبته ... أو بين زيارات وتفاهات وتشاغل بأمور يومية بلهاء.

لا يغيِّر وقع الأيام الرتيبة سوي رنين مكالمة خارجية، لا تحمل إلا السلام وأخر الأخبار وموجزها.. ولا تحقق دفئاً حقيقاً ، فحلو الكلام لا يقال إلا همساً وعن قرب .. ولا تستطيع أن تحمل حرارته أسلاكاً تعبر قارات وأقمار صناعية تسبح في أفلاك .. ولم تعد الرسائل المكتوبة تكفي .. فالورق رغم رومانسيته وقدرته على حمل لواعج النفس جاف .. وتأثيره المخدر وقتي ، ولا يُشبع من جوع.

حتي الرسائل الصوتية التي أصبحت لغة المحبين المحدثين باتت لا تجد من يحملها دائماً.

لا مفر من العودة، عودته .. أو عودتنا له، فلا الجيوب الممتلئة تحقق الدفء .. ولا السيارة المنطلقة تجوب الطرقات تحت حرارة الشمس تحقق الدفء .. ولا الثياب الفاخرة الثقيلة تحقق الدفء .. حتي لو كانت فراء يُغرِق صاحبته في موجات من النعومة

الدافئة ؛ لأنه قد يدفيء الجسد .. ولكن لا يدفيء القلب؛ لذا قررت العودة إليه .. ولن أنتظر عودته لي.



لم أجد من ينصرني ومعي كل الحق!! ووجد المخطئ من يؤيده، ويدافع عنه؛ وكأنني أتهمه زوراً!! وضع كل منهم نفسه مكان هذا الرجل .. وشعروا أن اتهامه إهانة لهم جميعا !!

حتى زوجي



عملقتُ دهشة حينما طالعتُ الخبر أول مرة في الصحيفة..
كيف جَرأت هذه المرأة أن تعلن عن ممارسات وضغوط رئيسها في العمل عليها، وهو شخصية عامة ومرشح لأعلى منصب قضائي في أهم دول العالم .. وبقدْر ما أُعجبت بجرأة هذه المرأة بقدر ما عَجبت وتساءلت: أين سيجدون الرجل النقي الذي لم يُطارد يوماً ما فريسة أوقعتها المقادير في طريقه؟!

رميت الجريدة من يديَّ؛ لأمسك بأخرى، فوجدتها قد أفردت صفحة كاملة لإستعراض هذه القصة الطريفة .. التي أقامت الدنيا ولم تُقعدُها هناك .. وهنا .. حتى باتت حديث المجالس.

تنقَّلت عيناي بين الصفحات؛ لتجد أن معظم الكُتَّاب قد تناولوا الأمر .. وكلهم بالطبع مُتحيِّز لبني جنسه .. إلا قلة علقت على موقف المرأة بشيء من الموضوعية المشوبة أو المبطنة بوصف المرأة التي تعلن على الملأ عن تعرّضها – مجرد تعرّضها – لمغازلة بالجرأة المرفوضة، والقحة .. وكأنهم يحذرون بطرف خفي كل من تُسوِّل لها نفسها هنا أن تعلن عما تتعرض له من ضغوط،

وما يلحقها من إضطهاد إذا رفضت أو تمنَّعت .. حتى لو كان ذلك مُغلّفاً بإدعاء الجهل والبراءة .. وعدم فهم المقصدِ الحقيقي .. خاصة إذا ما كان الحديث يحمل معنيّن.

ركلت بقدمي كَومة الصحف كلها .. وإحتفظت في يدي بالمجلة الوحيدة التي وجدت بها مقالاً يؤيدّ موقف هذه المرأة، التي تطوعت بعد سنوات طوال أن تُدلي بدلوها؛ لتفضح شخصاً يُظهر غير ما يُبطِن؛ كي تَحول دون وصول إنسان دنيء إلى سدة الحكم والقضاء.

رحت أبحث في دليل الهاتف عن رقم كاتب المقال؛ لأحيِّه على شجاعته النادرة بين الرجال، وموضوعيته في مناصرة إمرأة على بُعد آلاف الأميال .. عبثاً لم أجد الرقم مدوَّن في الدليل.

إستكنتُ للحظة .. وحاولت طرد الفكرة من رأسي .. لكنها مالبثت أن أطلت من جديد .. فسحبت قلماً ورزمة أوراق؛ لأخط له رسالة مُطَوّلة بوصفه أشجع الرجال .. وآخر المحترمين منهم.

(٢)

لم أجد نفسي يوماً بهذا الحماس لمراسلة الصُحف، أو الكتابة لمحرريها .. لكن الأمر هذه المرة إختلف؛ فقد مس لديَّ وتراً حساساً .. إذ تجرأت يوماً وإمتعضت من رجل حاول أن يُزاحمني، ويلتصق بي في حافلة عامة، مكتظة بالبشر، وكأنهم

رؤوس ماشية محمولة إلى مذبح .. فتلبَّست رُكَّاب الحافلة من الذكور رغبات حيوانية، لا مجال للإناث لرفضها، أو محاولة التملص منها في هذا الحيز الضيق .. وكان أن عبَّرت عن رفضي بنظرة غاضبة .. ومحاولة التعبير بكلام عام غير موجه لشخص بعينه، فما كان منه إلا أن هاج بشدة، وناصره بعض الرُكَّاب، فمن قائل:

- «إللي مش عاجبُه ينزل يركب تاكسي».
- «حد كَلّمك ؟! هُو تلقيح جتت !!!».
- يعني من جمالك ؟!

لم أدري من ذا الذي «يُلَقِّح جتته» على الآخر!! وذُبت من الخجل والندم معاً .. على مجرد الإعتراض .. وتركت الحافلة ونزلت؛ لأسير أكثر من ساعة على قدميَّ، وأنا أنتفض باكية من الشعور بالمهانة والخزلان .. لم أجد من ينصرني ومعي كل الحق .. ووجد المخطيء من يؤيده، ويدافع عنه، وكأنني أتهمه زوراً !! وضع كل منهم نفسه مكان هذا الرجل .. وشعروا أن إتهامه إهانة لهم جميعاً!!

تداعت إلى مخيلتي عشرات المواقف المماثلة .. التي عبرتها خلال عقود أربع هي عمري .. مع إختلاف الظروف والملابسات .. فَرُحْتُ أستدعيها جميعاً على الورق .. وبدأتها بالكتابة عن قريب طاعن في السن حاول معي - وأنا بعد صغيرة - ولم أستطع

التملُّص من بين يديه .. وحينما أعلنت أهلي بما فعل، لم يُصدِّقني أحد، بل نهروني بشدة؛ حتى لا أُعيد مثل هذا الحديث.

ذكرتُ ماكان من شخصية عامة مرموقة، ذهبت إليه؛ ليتوسط لي في الحصول على عمل، فإصطحبني في سيارته؛ وبدأ حديثه يلتوي بعيداً دون حياء، وأمام سائقه الخاص - الذي يبدو أنه إعتاد مثل هذه الأحاديث - وأنا أتجاهل مقصده .. حتى دعاني كي أصحبه إلى السينما، فرفضت بشدة .. وكنت شابة صغيرة ليس لي خبْرة .. وحاولت أن أُذكِّره بأنه متزوج من إحدى قريباتي، وأن له أبناء في مثل سني!! فإعتبرها إهانة .. وماكان منه إلا أن أمر السائق بالوقوف عند أول مُنعطف؛ لتلفظني السيارة .. وضاعت أحلام الوظيفة.

حكيتُ لكاتبي الشجاع عن حلم العمل فوق السحاب .. كيف تبدد أمام تواقُح مدير شركة الطيران، القادم من بلد ثري؛ ليشتري كل شيء بماله .. وقد تصورني ضمن السلع المعروضة للبيع .. فتمادى في وقاحة يطلب بلسانه - ما لا يُطلب - بأسلوب فج إرتعدت له، وإنتفضت واقفة معلنة عن رفضي - وأيضاً لقنتُهُ درساً - وتنازلت عن الحلم الذي لن أستطع دفع ثمنه الغالي.

حتى حينما تقدَّمت بيَ الأيام .. ولم أعد بحاجة تُجبرني على مواجهة هذه المواقف أو التعرض لها .. وإحتميت بوضعي كزوجة وأم، وإمرأة تتقلد منصباً يمنحها قناعاً من الجد والصرامة في

مواجهة الطامعين، كما إحتميت بتقدُّم العمر، وغياب النضارة، وتضاؤل مسحة الجمال الهاربة، وظننت أن من يحاول معي لابد وأنه متخلفاً عقلياً .. فمن يحاول سيسمع ما يكره، ويُرد خائباً .. ورغم ذلك لم يخل الأمر من صديق للعائلة يحاول الإصطياد في الماء العكر، إثر خلاف زوجي عابر .. أو قريب يستخسرُني في هذا الزوج الأبله، الذي لا يُقدِّر قيمة الجوهرة التي بين يديه، ومن يقول بأني إمرأة ذات نكهة خاصة !! ومن يحاول رفع الكلفة وكسر هذا الطوق من الوقار الذي أتحلق به، وأضعه سياجاً شائكاً يصد عني غزوات المغامرين.

كَلَّت يدي من الكتابة .. لكني رحت أُضيف قصة جار يطاردني ويتحين الفرص ليوقفني على السلم؛ ليُلقي على مسامعي عبارات نصف مكشوفة، وبلغ من تطاوله أن دق بابي ليلاً متعللاً بحُجج واهية .. طالما زوجي مسافر، فلما صددته .. لم أسلم من لسانه .. وصرت مضغة في الأفواه.

رحت أسهب له في وصف مشاعري حيال كل موقف .. وكيف كنت لا ألوم إلا نفسي في كل مرة، وأبحث عن سبب في ذاتي قد جعلني مطمعاً، فلا أجد!!

أنا إنسانة جادة جداً .. بل حادة بشكل لافت، لا أبالغ في زينتي، ولا تكشف ثيابي عن شيء مثير .. وحتى ماكان لي من نعمة الجمال، لم يكن يوماً ما من النوع الصارخ الملون .. بل هو

لا يُغري لأول وهلة .. ولا يُصيب بدوار أو صدمة النظرة الأولى .. كما وأني أجر خطأً بالمسطرة بين ما أمارسه سراً مع زوجي .. وبين مظهري الصارم، فلا قول خاضع، ولا صوت خفيض وضحكة لها ذيل رنان .. حتى كدت أن أصاب بإنفصام في الشخصية.

كتبت كل ذلك بإنفعال، مُفرِغة كل سخطي وغضبي على الورق، ثم طويت الرسالة الطويلة، بعد أن ذيَّلتها بالأحرف الأولى من إسمي .. فلم أجرؤ على كتابته كاملاً .. رغم أن ما كتبته لا ينطوي على شيء مشين بالنسبة لي!!

شعرت أن الرسالة أضخم من أن تُرسل في بريد، فقررت أن أحملها بنفسي إليه .. وجلست أقرأها مرة أخرى .. وأُنقِّح وأضيف: إن زوجي نفسه قد بدأ تعارفه بي بمغازلة رخيصة لي ولزميلة كانت معي، فصدَّدته بعنف مؤكدة أن: مثل هذا الحديث لا يُسعدني، وأني أعتبره إهانة، وليس مديحاً أو مجاملة، في حين تجاوبت معه الأخرى .. فكان أن وقع إختياره عليَّ من دونها.

(٣)

سعيت للقاء الكاتب الشجاع لأُحيِّه بنفسي، وأضع بين يديه إعترافات أرجو أن لا يُعلنها بإسمي، بل فقط يُشير إلى الكم الهائل من الضغوط الذي تتعرض له إمرأة واحدة عادية الجمال

.. جادة المظهر.

بعد عناء وصلت إلى بُغيتي، وتحدد ليَّ موعداً للقاء الكاتب الكبير، من خلال مديرة مكتبه، التي عرفت أنها كانت زميلة دراسة.

جلست في المكتب – المبطن بالخشب والمليء بالزوار – أنتظر أن يفرغ من لقاءاته الكثيرة .. حتى يسمح لي بالدخول.

دار حديث متقطع بيني وبين سكرتيرته عن أيام الدراسة والزميلات، وعن نهاية المطاف، وعن عملها مع شخصية هامة مثله، وعن مصاعب العمل مع المشاهير، وعن إعجابي الشديد بما يكتبه دائماً، وصاحبتي دَهشة من حماسي، تنظر لي في إستغراب .. وإستهانة من مشاعري، وأنا أعجب منها، كيف لا تحمد الله أنها تعمل مع مثل هذا الرجل!! ولا تُقدِّر أن مجرد رؤيته يومياً، والحديث إليه يُعد إضافة لها ، فهو لا شك شخصية ساحرة، طلية الحديث.

تصورت أنها تخشى أن أحسدها على ما هي فيه من نعمة!! وإستطردت أشيد به، وبكتاباته وبآرائه .. خاصة ما يضعه من حلول غاية في الحكمة، في رده على مشاكل قراءه العاطفية والإجتماعية، والأهم إنصافه للمرأة على طول الخط، وإحترامه لها .. كل ذلك وصديقتي لا تُعلِّق على تدفق حديثي إلا بعبارات مقتضبة من نوعية: طبعاً .. ياسلام!! أمَال!! هوَ في زيَه؟!

إسالْيني أنا..

إستزدتها أن تحدثني عنه أكثر؛ قطعاً للوقت .. بعد أن شعرت أني سأنتظر طويلاً، حتى يعطيني الإذن بالدخول .. وكلما همَّت بالحديث قطعه رنين الهاتف أو دخول وخروج زوار .. وأنا شغوفة بالإستزادة، حتى فرغت الغرفة إلا من كلينا .. فوجدتها تسألني:

– لماذا جئت بالضبط؟! وما الهدف من الزيارة؟

ما كدت أهم أن أحكي لها عن السبب حتى دخلت إمرأة – باهرة الجمال – وكأنها تدخل بيتها .. تتصرف ببساطة .. وتسأل عنه بإسمه دون ألقاب .. وتسألها عنه بسخرية واضحة:

– عامل معاك إيه سعادة البيه ؟!!

فردت:

– الحمد لله .. أهي أيام .. هانت .

تَركتْها وإتجهت – دون أن تنتبه لوجودي – إلى باب مكتبِه، فتحته بعنف دون إستإذان .. ودخلت وصفقت الباب خلفها.

إستنكرتُ تصرفها، وسألت:

– من تكون؟! ولماذا تتحدث عن الأستاذ بهذا الأسلوب؟! فإنفجرت صاحبتي قائلةً:

– زوجته، وهي تعلم سلوكياته جيداً، وتعرف أنه يطارد كل المحررات، ولم تسلم منه إحداهن .. حتى عاملات النظافة يغازلهن بوقاحة، وقد ضبطتهُ مؤخراً مع خادمتها .. وفضحتهُ بين

الزملاء .. دون فائدة.

واستطردتْ تقول وأنا مذهولة مما أسمع:

– أنا نفسي لم أسلم منه .. وطلبتُ نقلي عدة مرات، ووافق أخيراً.

وتوقفتْ فجأة وسألتني، وكأنها تُلملِم ما تبعثر من لسانها؛ ولتُغيِّر الموضوع:

– لكن .. أنت لم تقولي لي عن سبب الزيارة؟

فوقفت أحمل أوراقي قائلة:

– كان لازم أشوفك .. لأعرف أن كلهم في الخفاء ذاك الرجل.

على الصفحات

تصويب
الأخطاء

رقم الصفحه	السطر	التصويب
٢٤	١٥	وتعليقهم
٣٢	٢	ولففن
٦٠	١٢	الأزر
٦٣	٩	حزنهن .... ويخاطبن
٨٧	٣	المزدحم
٨٧	٢	يرها
٩٠	٢	العرافه
٩١	١٢	هارد
٩٨	١٠	تركوها
١١٧	١٣	الخذلان

الإصدار القادم للمؤلفه

الشخصية المصرية من الأمثال الشعبية

"دراسة تحليل مضمون للمتواتر
من الأمثال الشعبية المصريه،
وتأكيدها للسمات الشخصية للمصريين"

الإصدارات القادمة للمؤلفه

صفحات ممنوعه

دراسة حول صورتنا فى الخارج

رقم الايداع
٩٣/١٠٥٩٢

I.S.B.N : 977-00-6193-X